في وداع زميلنا
حسين جميل البرغوثي

فجر الأربعاء، الأوّل من أيار 2002، رحل عن الساحة الثقافية الفلسطينية والعربية زميلنا الشاعر حسين جميل البرغوثي، مدير تحرير مجلّة «الشعراء».

كان محاطاً بأصدقائه ومحبيه حتى اللحظة الأخيرة، حسين المثقف العنيد الذي صارع الداء شهوراً طويلة، بقي قوياً وحاضر الذهن حتى دخل في غيبوبته الأخيرة منتصف تلك الليلة المنكودة، تاركاً خلفه فراغاً يعزّ تعويضه وجهداً يصعب تجاوزه، وبمجرّد إعلان نبأ رحيله بدأت موجة من الكتابة تتدفق عنه وحوله، كتابات محبّة ووفية، في هذا العدد من «الشعراء» نقدّم تلك الكتابات التي قيلت بحق الزميل الراحل في إلماحة تأبينية، سيتبعها - إن شاء الله - تكريس غير ملف يتناول أعمال الراحل ودوره في إنهاض المشروع الثقافي والفكري على مختلف المستويات.

ومن الذين تناولوا رحيل الفقيد الزملاء : أحمد دحبور، أمجد ناصر، جهاد هديب، حسن البطل، عصام السعدي، يحيى يخلف، مريد البرغوثي، رسمي أبو علي، عبد الرحيم الشيخ، محمود أبو هشهش، حسن خضر، حافظ البرغوثي، تيسير مشارقة، وغيرهم .

حسين جميل البرغوثي .. وداعاً
غياب العقل الفعّال

مراد السوداني

ولد الشاعر حسين جميل البرغوثي في قرية (كوبر) العام 1954، تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي فيها، قبل أن ينتقل إلى رام الله حيث أنهى دراسته الثانوية. وسافر بعد ذلك، إلى هنغاريا، وهناك التحق بإحدى جامعاتها، لدراسة الاقتصاد، لكنه لم يكمل دراسته فيها، وعاد إلى أرض الوطن، حيث التحق بجامعة بيرزيت، وتخرج منها حائزاً على شهادة في مجال الأدب الإنجليزي، وحصل لتفوقه على بعثة أتاحت له الدراسة في أمريكا، فأكمل دراسته العليا، ونال درجة الماجستير والدكتوراة في الأدب المقارن، جامعة واشنطن، سياتل - الولايات المتحدة.

عرف بثقافته الشمولية وقدرته على الحوار والجدل، وإجادته للغة الفرنسية والمجرية والإنكليزية .. عمل عدة سنوات في مجال التدريس، سيما في جامعة بيرزيت حيث درّس مادة الدراسات الثقافية لينتقل بعدها إلى جامعة القدس.

وهو من مؤسّسي «بيت الشعر» في فلسطين ومدير تحرير مجلة «الشعراء» ومستشار تحرير مجلة (أقواس) .. وشغل عضوية هيئة إدارية في اتحاد الكتاب الفلسطينيين.

ألّف العديد من الكتب:

«أزمة الشعر المحلي» (1979)، دار صلاح الدين للنشر، القدس. «سقوط الجدار السابع»: الصراعات النفسية في الأدب (1981)، دار العامل، رام الله. رواية «الضفة الثالثة لنهر الأردن» (1983)، دار الشروق، رام الله. ديوان ليلى وتوبة، (1992)، اتحاد الكتاب الفلسطينيين - القدس. «الفراغ الذي رأى التفاصيل»، قصة صدرت في مجلة أوغاريت / رام الله (1992). «حجر الورد»، مجلة «عشتار»، غزة، وصدر في كتاب عن اتحاد الكتاب 2002. ديوان «توجد ألفاظ أوحش من هذه»، وزارة الثقافة، رام الله. ديوان «مرايا سائلة»، اتحاد الكتاب القدس، كتاب «الضوء الأزرق»، «بيت الشعر» - دار الشروق، رام الله 2001، «سأكون بين اللوز»، مجلة الكرمل، ج1، ج2، 2001.

وفي السينما له:

- المعصرة، سيناريو فيلم روائي بمشاركة رشيد مشهراوي.
- توتر، مستشار فني، فيلم وثائقي من إخراج رشيد مشهراوي.
- الغرباء، السرد والدراما، فيلم وثائقي من إخراج وائل أبو دقة.
- حريتي المفقودة، المفهوم، الدراما، فيلم وثائقي من إخراج عيسى فريج.

وخلال الأعوام 82 – 99 قام بكتابة العديد من الأغنيات لفرق موسيقية مختلفة مثل صابرين والرحالة وسنابل.

العقل البرّي الفعّال

مأخوذاً بكتاب «التحوّل»، ومنحازاً لعبور «السياج» ومجاورة الـ «ما يكون» أسند رأسه الفذ إلى يده الواهنة وذهب في البعيد، فقد كان يعرف أنه يمضي إلى ما ليس يعرف، أو كما قال ..

وفي جنائن اللوز والتين والزيتون الذي يضيء الروح، ولو لم تمسسه نار، وفي (الدير الجوّاني)، تقمّص الأشياء أو تقمّصته الأشياء تحت أشعة القمر، مقموراً صار، أو هكذا بدا له .. فثمّة شبحية تتسلّق الوعي ليسيل إلى خارجه أو تصبح الذات كهفاً، مغارة وموضوعها باسط ذراعيه بالوصيد .. وعندما تأمّل المشهد، خضرة القمر، النداءات الخفيّة، الأشجار الركّاضة في الذهن، أخذت الأشياء طابعها القمريّ، السحري، وصار كلّ ما هو «برّاني» «جوّانياً»، تماماً، بكامل فيوضات الوجود .. هنا البدايات تأخذ دور الفاعل المركزي في التمشهد التذكّري .. والحنين إلى ما كان، الطفولة الأولى، الأحاديث البكر، ما يمكن للذهن من حفظه في جوارير الذاكرة .. هذه الأجواء المشمولة بليل غربتها حنت عليه «حنو المرضعات على الفطيم» .. نلمح هنا تصالحاً ورغبة في العودة، في البدء كان راعياً، ويا إلهي كم رغب أن يكون راعياً للإوز والحجل البريّ في الأودية المقمرة! أودية «يسمع للجنّ في آفاقها زجلٌ عجيبُ».

التفاصيل تعبره بكامل ألقها وقلقها، هو الذي رأى وسمع وضحك حتى دمعت عيناه، هو الذي أنصت للحياة وقوّة الأشياء، وأيقظ قواها الكامنة/ النائمة وبقي يقظاً كشجر الحلم ..

ويا إلهي كم كان حالماً!. أتخيل كلماته الحلمية قوارب من نحاس في ازرقاق ذاهل .. هو الذي فكّك ما هو جاهز؛ المواضيع، الأجوبة، الثبات، فكانت الأسئلة والقلق الوجودي، وإدهاش الحياة التي أحبّها ولم يستطع إليها سبيلاً ..

هو الذي فاض بالكلام قصووياً .. وآنس لغة، ومال لتجريب ظلّ يصرّ عليه .. هو الذي أعطى وأعطى ولم يأخذ سوى محبة الناس.

يا إلهي وكم كان سعيداً بذلك، ينصت لبقبقة الماء وكل ما هو حيّ، يمنحك قدر ما تستطيع أن تحتمل، يتكلّم بقدر ما تقدر على الإنصات، طاقة روحه مهجوسة بالأنهار والسيولة والتدفق، شرارة الماء روحه ..

منحدراً من قوّة الأشياء وتماسك الطبائع، جاء غريب الزي واللغة في أرض غريبة تدعى الحياة، فأنكره البعض وصدّقه آخرون،، ولأن، هذه البلاد بها «شبه الجنون»، «فقد انقرض المكان وتوحّش وطاردته المساحة» كما قال، حينها اقتربنا منه نحن أبناء الجبال مشاة الطرق الوعرة ذوو النبرة الخشينة.. فالتفت إلينا: صداقة، حواراً وسهراً حتى صياح الديك.. كان واضحاً وكنّا غامضين.. فصدّقناه.. يمنح روحه فرصة الامتداد في الأقاصي والأبعاد، يضحك حتى تدمع عيناه.. فيه غربة البّر الواسع وقسوة الرعد.. منحاز للبسيط والعادي والطيّب، ويحلم كثيراً، ويا إلهي كم كان حالماً، طاقة روحه تزاحم فوران البراكين وسطوة الغد على الأمس.

كان يعلم أن هذا الوطن (لا تجدي فيه الموهبة أمام الامتيازات)، فذهب للغة يشقّ صدفها وصُدَفِها ليرى ويتقّرى ذاته وما حوله.. فكتب (الرؤيا)، وتبصّر المستقبل الذي خاله شاشة تلفاز أسود.. وردد:

«تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن   ترّحلن بالعلياء من فوق جرهمِ»

وقال لي: تأمل مركزية البيت (تبصّر)، ويا إلهي كما كان ملاحظاً، به دقة ميزان الذهب، وذهب بقميص شبحي وعينين ذابلتين وعقل مشتعل نحو أسئلة «ما بعد الرماد» .. وفي لوحة الصمت المعلقة بين باصرتيه لمحت عبارة ترقرقت: «انج من بلدٍ لا روح فيه» .. وغاب ذو العقل البري بين جنائن اللوز.

أيّها المعلم .. ثمّة أسئلة نثرتها في أمكنة فصارت مكانيّات أورقت كلاماً في تربة أرواحنا .. أيّها المسجّى في ظلال اللّوز المتوّج بالرحيل الجارح .. أيّها الكربلائي الذي وقف على قمّة الطفولة ولذاذات تشكّل الروح في براحها البدئي .. فغنّ باسمه يا بلادي ..

هو من صرخ في سكون عمائنا فضجّت الذاكرة المعلّبة وتشققت جدرانها .. فغنّ باسمه يا بلادي ..

قلبك من ذهب خالص، وذهنك قدر يغلي بما تعرف وما تحنّ بالمعرفة له ومؤانسته .. بعين تحفر في الماضي/ الغياب وعين ترحل للمستقبل، وقفت بين غيابين، ذاتاً مكتظة بملائها واكتمالها .. فغنّ باسمه يا بلادي ..

أيها المريدون: مات حسين جميل البرغوثي .. نعم مات .. بكل حزن ووجع وخسارة نجهش باللغة .. مات المعلم الاستثنائي في زمن عادي، أقصد العادي في زمن استثنائي .. فغنّ باسمه يا بلادي.. مات العقل البريّ فغنّ باسمه يا بلادي.

بهدوء موجع وذهابٍ كاوٍ وخفوتٍ حزين رحل الصديق حسين جميل البرغوثي .. رحل هكذا بمقدمات تدمع الشجر والحجر، أسبوعان محرقان مرّا على جسده الواهن وروحه الصلبة في مشفى شهداء الأقصى الذي يكاتف مشفى رام الله الحكومي .. كان مرقده في غرفة رقم (5) ذات النافذة التي تطـلّ على الغروب الغريب .. طفح ضوؤه الأزرق ليغطي سريره الذي صار بحراً أزرق تغطيه ملاءة بيضاء .. ولعلّ طريح الفراش بدا موجةً تتكسّر يوماً بعد يوم ..

جهاز صغير يعلو رأسه لقياس الضغط والقلب والأكسجين مصحوباً بأنين دائمٍ وأنابيب ثلاثة تتسلل للأنف واليد اليسرى التي انتفخت كما قدمه اليسرى.. متكئاً على طاولة زرقاء مسنداً يده المنتفخة إلى

رأسه يقضي ثلثي نهاره .. ساهماً وإن نطق فبصعوبة تلحظها وتتحسّس ملامحها .. ورغم ذلك بقي مثلما عرفناه عنيداً شجاعاً متأمّلاً حتى اللحظة الخاطفة. قبيل أيام قيل أن ثمّة دواء أعدّه كيميائي لبناني يمكن أن ينقذ صاحبنا، وصلت كمية منه عبر الأردن لتصل إلى أريحا ويحضرها أحد الأصدقاء رغم ما يجري هنا وهناك من قتل وبطش وأذى .. كان هذا الدواء بمثابة شعرة الأمل التي يتمسك بها أبو آثر ويصرّ عليها .. نفذ الدواء وبقي الجميع في انتظار الدفعة التالية التي كان من المفترض أن يأخذ بعض جرعاتها .. يصل الدواء، وربما كان تأخره خذلاناً لروحه التي اتخذت صلابة مواقفه وثباتها .. وبدأت أغصان شجرة العمر تتقصف رويداً رويداً .. قبيل ثلاثة أيام من رحيله في حضرته غسان زقطان فرانسوا أبو سالم الذي حضر من فرنسا ليعوده وأنا، ودار الحديث حول عمل مسرحي جديد حال مرض حسين من استكماله، فعهد بالفكرة لغسان لمتابعتها مع فرانسوا .. العمل يدور حول فكرة الخلود بالاتكاء على ملحمة جلجامش، بدأ أبو آثر بالكلام وإمكانيات مقاربة الموضوع ما يزيد على ربع ساعة وكان كعادته عميقاً بكامل تركيزه ووعيه، قاطعه فرانسوا ضاحكاً: انظر لحزمة الضوء المساقطة من نافذة الغرفة.. ابتسم بحياد، وساد صمت غريب .. عادت بي الذاكرة لمحاضراته في جامعة بيرزيت حول ملحمة «كلكامش» وعشبة الخلود. كان يتحيّن الفرص ليكسر برودة حضورنا بالسؤال عن أحوالنا، وكم كان دافئاً! يومياً يتوافد للسؤال على حالته أصدقاء قدامى، زملاء دراسة وعمل، مريدون، طلبة ومحبّون، مسرحيون وتشكيليون، بسطاء عرفوه، هذا التزاور شكّل دافعية لحسين ليصر على المقاومة، مقاومة الموت وتأجيله .. في الرابعة صباحاً (1 – 5 – 2002) أغمض عينيه إلى حيث البعيد، المجهول والقصي، وتحت زخّات رصاص الغزاة بالقرب من مشفى رام الله الحكومي ورشقات المقاومين الفلسطينيين تحت سقف هذا القصف نقل الأصدقاء الجسد المسجّى إلى ثلاجة الموتى.

وفي الصباح وما إن أعلنت إذاعة صوت فلسطين رحيل الشاعر والمفكّر حسين البرغوثي حتى تدافع من عرف أبو آثر إلى المشفى ليحمل في مسيرة ضمّت عدداً من المثقفين والأصدقاء إلى ميدان المنارة وسط مدينة رام الله وثمة دموع تنعف على الطرقات.

وفي ساعات الظهيرة انطلق موكب التشييع من ساحة مستشفى الشيخ زايد برام الله التي غصّت بأصدقائه ومحبيه فيما وضع مسرح القصبة على خلفية السيارة التي حملت النعش إكليلاً من الورد الأحمر والأبيض كتب في وسطه (لا، لم يمت) وهو اسم مسرحية كتبها الراحل، في إشارة إلى أنه ما زال حياً فيما كتب من أعمال إبداعية.

بين أشجار اللوز التي تتوسط ساحة منزل والديه، في قريته كوبر، شمال رام الله ووري الشاعر والمبدع حسين جميل البرغوثي الثرى، تنفيذاً لكلماته التي حملت رغبته في أن يسجّى هناك .. حيث مرابع الصبا، الطفولة، البدايات.

بعد ثمانية وأربعين عاماً من التطواف والسفر والقراءة والكتابة والبحث والتأمل وحبّ الناس والأرض، رحل البرغوثي، بعد أن خاتله المرض الذي كتب خلاله وعنه مجموعة من أروع أعماله الفنية.

أغمض أبو آثر عينيه وإلى الأبد .. تاركاً حزناً في الزمان والمكان حيث السماء رمادية أو تكاد. وضع

الجسد المسجّى للصلاة عليه، حملناه إلى قبر قريب من قبر والده، والعيون شواخص لهذا البياض الذي دلّوه في بطن الأرض، قرأ الزميل الشاعر المتوكل طه كلمة المثقفين والمؤسسات الثقافية الفلسطينية، حيث قال:

طه : غزال وغيمة

قطع المسافات بين كوبر والبلاد وحافظ على شهوة الحياة ليخلق أخوة وطلبة. لقد بقي البرغوثي كالغيمة يساقط عواصف أو ندى دون أن يحسب مقادير التجارة. لماذا تبكر أيها الوسواس الموت وتقضم على شبع رئتي هذا الغزال. لم يكن ضوء حسين أزرق تماماً، كان آدمياً مثل كل المفقودات والأساطير يشبه دورة الشمس، وغروبه أكثر عناداً من الدائرة الفياضة بالنهار.

لقد طلع من حسرات المذبوحين الذين يرقدون تحت التلة القريبة في قبر جماعي صعب. وأشار كذلك إلى أن الراحل كان صاحب ثقافة شاملة منفتحة غير صحراوية أو موسمية، بل هو من المثقفين القلائل الذين لم يستلبهم بعد واحد.

ووصف طه رحيل حسين البرغوثي بالخسارة الفادحة الموجعة باعتباره أحد أبرز مبدعي فلسطين ومفكريها وأكثر المبدعين جرأة في اجتراح أشكال إبداعية جديدة وأنه رائد التجريب وتقعيد رؤية نقدية جديدة في الأدب الفلسطيني.

الغزاوي : منارة ثقافية مختلفة

أما الروائي عزت الغزاوي، رئيس اتحاد الكتاب فقد أبّن الراحل قائلاً:

لقد خسرنا منارة ثقافية وفكرية تميزت بالاختلاف والمفاجأة وأشعر باعتزاز بشجاعة هذا الرجل وإصراره على مقاومة المرض وقدرته العالية على تقبل الواقع، المؤلم في الأمر أنّ البرغوثي رحل قبل الأوان، كان طيلة الوقت بعد مرضه يريد أن يتهاون مع الموت كي يكسب شيئاً من الوقت ليكتب فيه ما لم يكتب في حياته.

هذه اللحظة صعبة وقاسية، نودع فيها مفكراً وكاتباً وإنساناً رغم إيماننا أن الناس يعيشون بكلماتهم المضيئة وأفكارهم مؤكداً أن الراحل لم يكن ناقلاً، بل كان أميناً لفكرته وأحلامه، يمضي إلى التراب مبكراً كما العباقرة، لقد رأى كيف يموت الصغار والأبرياء وحملة الألوية فتساءل وهو يكابد المرض وكتب وقرأ وحاول أن يكون مختلفاً.

كان أستاذاً بما تحمله الكلمة من معنى والتف حوله الرفاق والمريدون وبشر بالعدالة الاجتماعية التي لم

يحصل عليها في بداية حياته، مؤكداً أنه لم يستسلم للموت، بل انتزع رهبة الموت. وخاطبه قائلاً: أيها المسجى بيننا الآن، عليك السلام، ها أنت حسب رغبتك بين اللوز تعيش، سنكون ناقصين دونك وسنشعر بالخسارة.

مراد السوداني : كلمة تلاميذ الراحل

السلام عليك يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حياً، ستكون بين اللوز وهكذا كنت، لقد ذهبت في البعد الآخر ورحلت عنا لتبقى كلمات وصدقاً وأمانة. إن من يعرفك يشعر بحجم الخسارة التي فقدها المثقفون ويدرك أن ما قلته وما حاورته وما ناقشته ما هو سوى كلمات مضيئة في سماء بلادنا الرمادية أو هكذا تبدو، لقد رحلت وتركت لنا سرك، ابنك الصغير آثر.

البرغوثي : ظاهرة تستحق التوقف

محرم البرغوثي ألقى كلمة ذوي الفقيد مؤكداً أن كل واحد منا لم يتمن أن يقف مبكراً مع فقيدنا الكبير وأنه علمنا أن تطويع الفقر وقهره ممكنان وكذلك تحويله إلى حافز للإبداع وأن المعرفة والتعلم غير مرهونين بالفقر أو الغنى، لقد كان حسين ظاهرة تستحق التوقف عندها والتعلم منها، كان مدرسة في الشجاعة والإرادة حتى آخر أيامه. نم قرير العين يا حسين، لقد سبقتنا بكل شيء، في تعلمك ومعرفتك .. سبقتنا بموتك، أبيت إلا أن تكون في زمن مواكب الشهداء.
وكانت وزارة الثقافة واتحاد الكتاب والأُدباء و «بيت الشعر» نعوا الناقد والكاتب حسين البرغوثي معبرين عن فجيعتهم برحيله في سن مبكرة وفي أوج العطاء، كما العظماء دائماً وأعلنوا باسم المثقفين جميعاً عن تلقي العزاء به في مركز بلدنا الثقافي وسط مدينة رام الله. وأشار غير مبدع إلى دور الراحل كفاعلية ثقافية في المشهد الثقافي الفلسطيني وفيما يلي مقتطفات مما قالوه:

أبو بكر : كاتب مهم

الناقد والروائي وليد أبو بكر قال إن حسين البرغوثي بدأ مشروعه الثقافي مؤخراً وأن القدر لم يمهله حتى استكمال هذا المشروع، مؤكداً أنه من أكثر أبناء جيله ثقافة وموهبة، وأنه أهم من كتب فلسطينياً في مجال السيرة موضحاً أنّ نصه «سأكون بين اللوز» هو عمل متميز في الأدب الفلسطيني يتسم بالصدق والقدرة على التعبير.

شحادة : مثقف في حدود عليا

الكاتب د. سمير شحادة أمين عام المؤسسات الوطنية أشار إلى أن الراحل كان يمثل طاقة ثقافية على مستويات مختلفة وأنه أكاديمي ناجح ومثقف في حدود عليا من سموات الثقافة، وشاعر قرأنا له الكثير من الشعر الذي ينم عن وعي وثقافة واسعة، وكاتب وناقد ومتحدث بارع في الندوات الأدبية.
كل هذه الجوانب نفتقدها الآن في هذه الظروف الصعبة التي يعاني فيها الأبطال. إن موته يضيف إلى فاجعتنا الوطنية فجيعة كبيرة على المستوى الإنساني، أيضاً، فقد كان محبوباً وصاحب نكتة وابتسامة.

الشرفا : موته محكمة واحتفالية تراجيدية

الناقد والكاتب وليد الشرفا قال: أشعر بموت البرغوثي أن الموت والحياة وجه لوجه وأن الموت محكمة لكل من يقف حول جثمانه بأن الكلمة وحدها يمكن أن تشكل معركة، أشعر أن الأفكار تهرول لتشيع البرغوثي وأن موته احتفالية تراجيدية تنكسر فيها مواقف الحب والكراهية وأن العبقرية والحياة في نهر واحد خلق منه حسين «الضوء الأزرق» و «حجر الورد». لقد فهم شاعرنا الحياة بشكل كان يجب فيه أن تمنعه من الاستمرار.
وتقرأ الفاتحة ويغادر الجميع وتنفذ كلماته: «سأكون بين اللوز» النصّ الأخير الذي كتبه حسين البرغوثي، كان يعرف بأنه لا محالة سيغادر هذه الدنيا، وأن مكانه بين اللوز، حيث الطفولة والبدايات والأسئلة الأولى، ونام هناك نومة أبدية، تاركاً لنا سرّه، صغيره «آثر» ابن الأربع سنوات.
كنّا نقرأ في عينيه كتاب الدمع، تمنينا لو يبكي، لم يفعلها، يا إلهي .. ذوى كل شيء فيه وبقي ذهنه متوقداً مشتعلاً كقنديلٍ في سفح ليل.

غزة : بيت عزاء استثنائي لشاعر استثنائي

وفي غزة مثلما الحال في شقيقتها الضفة، ورام الله تحديداً أقيم بيت للعزاء شارك فيه عدد من المثقفين والمبدعين والأصدقاء حيث أقام اتحاد كتاب فلسطين بمقره في غزة بيت عزاء للشاعر والمفكر الخلاق الدكتور حسين جميل البرغوثي. وأمّ المقر حشد كبير واستثنائي من جموع المثقفين والأدباء للتعبير عن الفاجعة التي ألمت بالوسط الثقافي في فلسطين، وفيما كانت صور الفقيد الراحل معلقة على أروقة الاتحاد صدح صوت كاميليا جبران المغنية في فرقة صابرين وهي تؤدي أشعار البرغوثي. بادر نائب رئيس الاتحاد الروائي عبدالله تايه إلى تحويل أجواء العزاء والفجيعة إلى ما يشبه ندوة أدبية وثقافية وفكرية تناولت تجربة الفقيد الإبداعية وكذلك مناقبه ومآثره الفكرية والنقدية والأكاديمية، بل والحياتية.

وتحدث الروائي عاطف أبو سيف عن تجربته الشخصية مع الراحل مذ كان عاطف طالباً في جامعة بيرزيت والتي كان الفقيد محاضراً فيها. وأبرز كيف أسس الشاعر الأكاديمي حسين البرغوثي طريقة حديثة واستثنائية للمدرس الجامعي المعاصر، وعن العلاقة الاستثنائية والفريدة التي جمعت البرغوثي مع طلابه الذين كانوا أصدقاء حميمين له أكثر من كونهم طلبة على مقاعد الدراسة.

وعن تأثير المفكر البرغوثي في جيل من الشعراء الشباب تحدث أبو سيف عن مدى التفاف الشعراء الشباب وتحديداً في الضفة على أسلوبية البرغوثي الفنية والإبداعية.

وتحدث الشاعر خالد جمعة عن الهم الكبير الذي كان يسكن البرغوثي في محاولاته للإجابة على الأسئلة الكبيرة حول الإبداع الجديد كما تطرق الشاعر جمعة إلى روح الدعابة وأسلوب الكوميديا السوداء التي كانت تسكن الشاعر في علاقته الإنسانية ورؤيته للحياة.

الشاعر أحمد يعقوب ابتدأ كلامه بأن فعل كان هو فعل موت وفعل ماضٍ ناقص لا يليق استخدامه في الحديث عن حسين البرغوثي لأن حسين سيكون دائماً وكما قال هو نفسه «سأكون بين اللوز» واستعرض الشاعر يعقوب توقف الوسط العراقي طويلاً أمام تجربة البرغوثي في المشهد الثقافي الفلسطيني. ورأى أن الراحل شاعر مجدد، وعزا سبب ذلك إلى تفرد تكوين البرغوثي الخلاق معرفياً وتجليات ذلك في قدرته الاستثنائية على هضم الموروث واللغة والفلسفة وإعادة تكوينها وفق آلياته الخاصة والتي حملت بصماته الشخصية ما منحه صفة التفرد في نصوصه.

وتحدث الروائي زيد أبو العلا مداخلة عن الرؤية الفلسطينية عند حسين البرغوثي حول المكان الذي قدم حسين من خلالها اختلافاً جذرياً لما قدمه الروائيون العرب، من بينهم نجيب محفوظ، عن المكان الذي قدموه بشكل تقريري وصفي ومباشر.

كما تحدث الفنان التشكيلي إبراهيم المزين وقد كان يعتصر ألماً ما تعذر عليه الحديث باستفاضة عن علاقته الحميمة بحسين البرغوثي منذ أن كانا يسكنان سوية.

لكن المزين تحدث عن مكونات حسين الروحية والفلسفية والفكرية وعن رؤيته للإبداع عامة وللشعر تحديداً وكذلك عن الرؤية البصرية وفلسفة اللون عند البرغوثي وعلاقتها في لغة حسين وفي كتاباته، كما أفصح إبراهيم المزين عن نصوص جديدة كان البرغوثي كتبها ولم تنشر بعد والتي أتت في سياق مقاومة حسين للمرض ومحاولاته المعرفية للترويض المرضي وبأسلوب إبداعي خلّاق.

الشاعر أحمد دحبور تحدث عن أهمية ما أنجزه الشاعر حسين البرغوثي فنياً ومعرفياً ورأى أن حسين قد أسّس إلى معرفية مضافة إلى المنجز المعرفي في فلسطين رغم الفترة الزمنية القصيرة نسبياً التي أبدع البرغوثي فيها منجزاته وطالب الشاعر دحبور بدراسة وطباعة ونشر أعمال الشاعر البرغوثي كما تحدث عن لحظات إنسانية جمعته مع الراحل حسين تجلت فيها تفردات حسين وهمومه الثقافية والفكرية.

وتحدث عدد من المثقفين الحضور عن معاناة الشاعر أثناء مرضه وعن بعض عدم الاهتمام الكافي الذي تعرض له كما تم الحديث عن شمولية البرغوثي الإبداعية من حيث الكتابة للمسرح والدراسات النقدية والإلمام باللغات الأجنبية والترجمة عنها.

هذا هو حسين البرغوثي كما عرفناه وعايشناه، كبيراً دائماً، متواضعاً، شهماً، مبتسماً، رائياً وشمولياً. وقد أبّن غير مبدع وكاتب الشاعر الراحل في الصحافة المحلية والعربية وفي ما يلي نماذج لما قيل في وداع حسين البرغوثي:

حسين البرغوثي كما أراد : سأكون بين اللوز
أحمد دحبور

في ذلك الشريط السينمائي المتروك لذاكرة الطفولة كان الأب الهرم يصف إحساسه بالموت لابنه غير الشرعي، فيقول: إنه كان كمن يهوي من الدور الخامس والعشرين. وكان كلما أصبح بموازاة دور جديد يعزي نفسه قائلاً: هذا لا بأس، لا يزال أمامي وقت. ولكنه عندما أصبح عند الدور الثالث عشر أدرك أن كل مسافة يقطعها إلى الأرض. فهي النهاية، ولا شيء غير ذلك. أما حسين البرغوثي فقد قفز مرة واحدة من بضع سنواته التي قضاها في العقد الخامس من العمر، إلى «الدور الثالث عشر». ومنذ اكتشاف السرطان، ومن غير تسويف، أصبحت كل مسافة يقطعها إلى الدور الأرضي تبلغه بإلحاح، وبلا رأفة، إنه ذاهب إلى هناك.. ولأنه مثقف نوعي علك الفلسفة وحار في أسئلة الموت والحياة، فما كان ليرضى أن تسفر النهاية عن عدم مظلم يقطع الحوار مع العالم. وهكذا آثر أن يكون ذلك المكان هناك.. بين اللوز. سياتل الأمريكية.. عرف الإنكليزية و المجرية وألمّ بالفرنسية.. و تبحّر في الفلسفة وعلم النفس. وعندما وقف أستاذاً أمام تلاميذه في جامعة بيرزيت، فاجأ الأساتذة والتلاميذ معاً بالأنموذج الإنساني الذي بناه من نفسه بنفسه تلقائياً. فهو العفوي، المبادر، الصامت، المتدفق في الحديث، الفوضوي مشيةً وملابس، المنظم فكراً وسلوكاً. فقد نجح، على حدّ تعبير الطيب صالح، بالإمساك بخيوط الفوضى. وكان لا يقر له قرار على جنس محدد في الكتابة. فكتب: «سقوط الجدار السابع» و «أزمة الشعر المحلي» والكثير من المقالات في الدراسة والنقد. وعطف على الرواية فكتب «الضفة الثالثة لنهر الأردن» – ولا أدري هل اقتبس العنوان من قصة: «ضفة النهر الثالثة» للبرازيلي خواوغويماريس روزا أم كان ذلك نوعاً من التخاطر – وأودع المكتبة الشعرية أربع مجموعات هي: «الرؤيا – ليلى وتوبة – توجد ألفاظ أوحش من هذه – مرايا سائلة». وكان له وقفة خاصة مع المسرح فنقل عن الإنكليزية رائعة شكسبير «روميو وجولييت». وكتب وشهد إخراج مسرحية يعبر عنوانها عن واقع الحال: «لا، لم يمت». وكأنه حين شرع في تسجيل سيرته الذاتية بكتابة: «الضوء الأزرق» .. شعر بأن الجرعة لم تكن كافية، فثنى بعمله الذي لم يصدر إلى الآن في كتاب مستقل، بل نشرته مجلة الكرمل على مرحلتين. هذا الكتاب، طبعاً هو «سأكون بين اللوز».. وفي الأول من الخامس الميلادي للعام 2002، أغمض حسين عينه وهو غير قلق على طفله الوحيد آثر ما دام بين يدي إيمان نجم، رفيقة عمر حسين التي أصبحت بعد ارتباطها به بترا البرغوثي.

إذن، توقف الوجع المستمر الممل يا أبا آثر.. فهل تسمح لنا بأن نقصدك في هذه الزيارة المبكرة إلى كوبر، حيث تقيم إلى الأبد، كما أوصيت، بين اللوز؟

بدايات مستترة

يعوّل الفيلسوف الوجودي الدانماركي سورين كيركغارد، وهو الذي فتن به حسين البرغوثي وخصّه بالاستشهاد الأول في سيرته: «سأكون بين اللوز» والتي سترمز لها بالسيرة:«إن الساخر يقارب بين المتضادات في جنون متفوق. وهو يسعى إلى إغراء البدايات الساحرة. فحياته لا تقبل الخضوع لنسق دائم، بل هي مشتتة وتتمتها مراقبة التحولات النفيسة. كما أنها تفقد التواصل والمتابعة. والأمر الوحيد الذي تعرفه هو الملل».

ومن اقترب من حسين البرغوثي، ولو قليلاً، يدرك بغير صعوبة كم هو «برغوثي» أصيل من جهة نزعته التهكمية الساخرة كما شخصها كيركغارد. وإن كنا لا نستطيع إغفال نزعته إلى الجدل مع المتضادات وحرصه على اشتقاق بدايات جديدة باستمرار. وهو، في سيرته التي بين أيدينا، يذهب إلى البدايات منذ الجملة الأولى:«بعد ثلاثين عاماً أعود إلى السكن في ريف رام الله.. إلى هذا الجمال الذي تمت خيانته، نفيت نفسي طوعاً عن بدايتي فيه، واخترت المنفى. وأنا ممن يتقنون البدايات وليس النهايات». لقد هجر جمال الطبيعة البكر ثم عاد إليه، ولكن ليس كعودة الإبن الضال النادم، بل عودة المكتشف. فما كان لمثل حسين أن يكف عن الدهشة في اقتراب البدايات. والجمال بالذات الذي تربطه مثالية أفلاطون بالخير بالذات، لا يطلب من هذا العائد بعد ثلاثين عاماً إلا أن يكون متصالحاً مع نفسه لينسجم، بالخير البشري، مع الجمال الطبيعي. وحسين الذي لم يكن أفلاطونياً بأي معنى يعترف لعودته بأنها تمت تحت وطأة المرض. والمرض يتعارض كلياً مع إنشاء البدايات لكونه إنذاراً بالنهاية. وهكذا يبلغنا بنوع من الاستسلام السعيد: إنها نهاية غير متقنة. هكذا يتداخل الشعر، بما هو لغة عليا، في الفلسفة بما هي لغة حسية محددة. فالشاعر ينزع إلى أن يخط السطر الأول كل مرة من حياته بدهشة الكتابة الأولى. وجسده المنهك يصادر على هذه النزعة. وهكذا تتحول البداية المقترحة من لحظة إبدا ع وكشف إلى إعادة إنتاج للماضي. وكل فعل سابق، حتى لو كان قد حدث قبل ثانية، هو فعل ماض. إلا أن حسيناً بمشاغبته على الخطوط المستقيمة، يغير الخريطة، ويذهب بالماضي إلى أبعد مما نتوقع. فهو، في أحد المستويات الزمنية القريبة، يضبط نفسه «زائداً عن الحاجة» في مستشفى تكون الأدوار السفلى مخصصة للموتى- لنلاحظ أنه أعطى الولادات صفة الجديدة، أما الموت فلا جديد فيه – وتلك المفارقة بين الأعالي المرتبطة بالولادة والأدوار التحتية المرتبطة بالموت، كما في إحدى قصص الإيطالي دينو بوتزاتي، تجعل الشاعر المهدود بالمرض مؤرجحاً بين الاحتمالين الوجوديين، مع ترجيح علامات النهاية وهو مما يفرض على ذاكرتي تلك اللحظة الدراماتيكية للشاعر المنكود توفيق صايغ:

«معلق أنا
بين موت وحياة
لا بين موت أو حياة».

وهكذا يفترق حسين البرغوثي موضوعياً عن كيركغارد صاحب كتاب «إما/أو». فقد هزمه المرض وسلبه الاختيار الحر بين «إما» هذا «أو» هذا. ولكن القدر على مراوغة الموت أسعفته بذاكرة الأجداد، وهو المستوى الآخر للزمن من حيث أنه بعيد فهو مشغول بهذا الزمن الكامن في الوديان، بالحياة النائمة في عمق الطبيعة، بالأضداد المتصارعة مع أن تناقضاتها تلخص وحدة الوجود. هكذا يخلو إلى وادي قريته الأولى فيحضره صوتان: صوت أحد أسلافه، قدورة، الذي لدغته «الأفعى الزعراء» في لحظة عبثية وهو يلوح بقدميه فوق ظهر حماره. وصوت الحيوان بحجم القط يبكي فيشبه صوته بكاء الأطفال. وفي المسافة الفارقة بين الموت العبق لرجل قوي وبين البكاء العبثي لذي روح من غير حول أو طول، يخط حسين البرغوثي تلك البداية الأليمة المستمرة. فنحن نحمل علامة موتنا بلحظة ولادتنا، ومن يولد فسوف يموت. ولا عزاء إلاّ بأن تجدده الطبيعة فيصبح إحدى ظاهراتها كأنه شجرة أو صخرة أو غريري مهدد بالانقراض.

ما لم يمت

لم يمت قدورة كله، حسب تعبير حسين البرغوثي، و للتذكير فإن قدورة هو عم أمه الذي لذعته الحية الزعراء – وهي صفة طريفة تفيد بأن الأفعى قصيرة. لكن في«الزعرنة» مستوى من العبث، أيضاً. ولم يمت قدورة إلا أن ما يهمنا، في هذا المشهد، هو أن حسيناً نفسه لا يحب الربابة، بل الناي، فهو بجنونه المتفوق يعترف للراحل المتميز بأنه لم يمر خفيفاً على الأرض، بل ترك أثراً وذاكرة، ولكنه، من جهة ثانية، لا يجامل الموتى. فموت قدورة لن يمنح ربابته قدسية عند حسين الذي أصاخ السمع العميق للأمثولة الشعبية العالقة بالدين. بحيث جعلت الناي وعاء لسر النبي، ومن بعده الإمام علي، مفتوحاً على الفضاء. ولكن ما يجمع بين الربابة والناي أنهما وسيلتانٍ موسيقيتان – ودعونا نتذكر أنهما، أيضاً، فلسطينيتان– وإذا كان خشب الناي متروعاً بماء الروح الذي يسيل صوتاً وشجى، فإن للربابة أن تقود أصوات المغنين إلى شجن موروث:

«جابولي هالعرق بيضا بكاسي
وقولي افراح بعد ما شاب راسي».

وما كان لهذا الصراع الفطري بين الرغبة في الحياة والشيب، بما هو علاقة شيخوخة يليها موت، أن يضرب في وعي صاحب السيرة لولا الربابة الموروثة من قدورة. إن العازف البدائي يجر قوسه على وترها

الخشن المصنوع غالباً من ذيل الفرس فتحمل صوتاً شبيهاً بالنواح اللاهث المبحوح، فقدورة، صاحب الربابة، بهذا المعنى لم يمت لأن الموسيقى باقية. ليست هذه سوريالية ولا لعباً ولا لعباً على التناقضات، ولكنه نبض الحياة المتصل بالموسيقى التي يعود بها حسين البرغوثي إلى أكثر أشكالها بدائية وبراءة. فالصمت، بحد ذاته، موسيقى، هكذا يقول نقلاً عن الأسلاف ويضيف: «ولكن قلة تعرف أن الصمت أنواع» والصمت أنواع حقاً بما هو كلام جواني لا يغشى طبلة الأذن، ولكنه يقترح كلاماً غير ذي صوت، وهو ما سينقلنا صفحات في هذه السيرة الغريدة إلى استبطان معنى الموت من داخل الحياة، فما يقصه علينا حسين بشأن فحوصاته ورائحة الأدوية وشحوب المرضى وحيادية الممرضات ليس ناتجاً عن حوار مسموع بينه وبين الآخرين. ولكنه يرسل صمته إلى الورق ويكتب عن كل شيء إلا الخوف من الموت. ولكنه أفصح عن هذا الموت مرة واحدة بالفرح. ومرة ثانية، ليس هذا لعباً على المتناقضات. ولكنه تسليم بريء باكتشاف تناقضات الحياة. فقد أوصلته مصادفة لا عقلانية إلى شك في أنه مصاب بالإيدز. وكما أن الصمت أنواع فإن الموت أنواع. وأن تموت وأنت تعارك مرضاً عضالاً بصبر وبسالة غير أن تموت بمرض شائن يفتك بالجسد والسمعة في وقت واحد. لكن هذا المضرس بالتجارب والمرارات قد لا تشغله السمعة مادام متصالحاً مع أخلاقه وقيمه، إلا أن الفزاعة التي تدمر مناعة روحه وصورة مستقبله معاً هي الأسرة الصغيرة: ماذا عن بترا؟ ماذا عن آثر؟.. إن الإيدز، إذا تحقق، سيكون خطراً لا راد له عن هذين الشريكين البريئين اللذين لا ذنب لهما إلا أنهما زوجة وابن لشاعر منكود يقطع أوصاله الفزع. وتأتي نتيجة الفحص بشارة سارة: عندك سرطان؟.. هل هو الجنون؟ أم العبث. بحدوده القصوى؟ سرور لأن النتيجة سرطان؟ وليس هذا وحسب، بل إن السعادة تستولي على المشهد، وسيرقص حسين البرغوثي مغتبطاً بالسرطان الذي يفتك بغدته اللمفاوية، لا لأنه عدمي، بل لأن السرطان مرض فتاك قاصر، لا يتجاوز جسده. أما الإيدز فقد كان خطراً على من لا ذنب لهما.. وفي فرحة حسين بسرطانه نسي أن يسأل نفسه: ولكن ما ذنبي أنا ليأتيني السرطان إلا حية زعراء خاصة به وحده. وسيموت وحده ولكن ليس كله، فسيبقى بعده آثر وبترا.

لعبة الأسماء

لا علاقة لأشخاص هذه السيرة بأسمائهم إلا من ندر. قد نشتق من اسم الجد «كايد» علامة على القوة أو نلتمس لقدورة علاقة بين القدوة والقدَر وشخصه الزائل. ولكن هذه كلها مصادفات. فلسنا مسؤولين عن أسمائنا إلا بمقدار علاقاتنا بالأبراج والشعوذات المتوارثة. ومع ذلك فقد توقف حسين عند اسمه واسم أبيه، فلم يذكر أن اسمه يذكره بأجمل الشهداء الحسين بن علي، وأنا أعرف شخصياً تقديره لهذا الشهيد الإستثنائي. لكنه اعترض على أنه اسم شائع متداول لا يحقق خصوصية. وكذلك اسم أبيه، ولما كان يحمل اسمه كما يحمل بصمات أصابعه، فليألفه كما هو على أن يمد نفوذ السيميائي إلى أقرب الناس

إليه. سيجعل من إيمان، زوجته، بترا. والإيمان صفة تنتسب إلى الأيديولوجيا. أما بتراء فهو اسم إشكالي يحيل إلى الأثر التاريخي وإلى البتر. ونحن مبتورون بظرفنا الإنساني والتاريخي والوطني. أما آثر فهو اسم غريب، مختلف، جاء بما يشبه النبوءة، نتيجة حلم وهاجس. ولهذا سيكون من العبث أن نبحث له عن معنى أو نص غائب إلا بما يؤكد أنه «إنتاج» حسين لا بالشروط الفيزيائية البيولوجية وحدها، بل يكون إلهاماً ونداء خفياً يأخذ معناه من أن هذا الطفل ينادي أباه باسمه: يا حسين، ولا يقول: يا أبي. إنه ندّه بما هو امتداد. تماماً كما كانت ربابة قدورة بالنسبة إلى قدورة. وبكاء الغريري بالنسبة إلى الحيوان المذعور. وقد يفيض عن هذا التأويل مؤشر دلالي إلى المناخ الديمقراطي الناشئ بين الأب والأبن. وما أحسب البرغوثي كان مشغولاً بهذه المعلومة لتصديرها إلى القارئ. فأمه هو كانت تعتبره عندما كان طفلاً، أميرها الصغير. وكانت تلقنه مفردات الحياة بحب وعذوبة من غير أن يكون ذلك درساً أكاديمياً في التربية للأجيال. كانت الفطرة هي أساس العلاقة. وكانت معركة حسين البرغوثي مع تجربته المعرفية الكبيرة هي المحافظة على تلك الفطرة. وهي ما تلخصها أمثولة رددتها الأم على مسمعه. وحين قرأتها، شخصياً، اهتز قلبي على صدى حكاية موازية سمعتها من أمي مع اختلاف الطرق. فالفتى عند أم حسين البرغوثي سيكون موزعاً بين طريق الوضوح أو طريق الغموض أو طريق اللاعودة. وهو يعترف بأن حشرة «سراج الغولة» لم توفر له الضوء الكافي للوضوح. ثم إنه لم يواصل طريق اللاعودة بدليل أنه عاد إلى ريف رام الله بعد ثلاثين عاماً من الغربة الاختيارية. وبقيت له طريق الغموض بما هي حقل دلالي يعج بالاحتمالات والتناقضات والأسئلة. ربما لهذا غض الطرف عن اسم إيمان المليء بدلالة الوضوح. واختار لابنه اسماً قادماً من الحلم. من غير أن يتنكر لوضعه البشري القدري. فهو حسين، مثل ملايين البشر الذين ورثوا أسماءهم من أهليهم وكان عليهم أن يجاهدوا ليمهروا أسماءهم الشخصية بالمعاني الناجمة عن إيقاع الحياة وألوانها المتداخلة «الغامضة». وقد نتذكر إحدى القصص القصيرة الشهيرة لماركيز التي تقول فيها النساء اللواتي شاهدن الرجل الغريق: إن ملامحه تدل على أن اسمه استيبان. ولكن ما الذي فعله هذا الـ «استيبان» حتى استحق افتراض ذلك الاسم. إن ماركيز لم يبلغنا. لكننا نقرأ نتاج حسين البرغوثي فندرك لماذا استحق اسمه بجدارة: إنه بكل الأسى والفخر.. حسين جميل البرغوثي..

خارج الزمن

وحسين الذي كان على يقين – مع أنه اختار الغموض، وبالتالي فأين اليقين؟– بأنه كان على صداقة روحية مع ابنه آثر في حياة سابقة. تسعفه الحياة السابقة بما هي مجاز ميثولوجي، بالبحث عن خمسة أيام ضائعة في الفرق بين التقويم الفرعوني والتقويم الشمسي. فتقول الأسطورة إن السنة كانت عند الفراعنة، كما هي فعلاً، خمسة أيام عندما كانت تلعب الدومينو. وكل من يولد خلال هذه الأيام الخمسة يولد خارج الزمن. وسيلتف حسين من هذه الأسطورة على ذخيرته الثقافية فيبرز له من «خارج الزمن» ما وصفه

مارسيل بروست بالزمن الضائع، ليعود إلى الواقع الجارح الذي يذكره بالزمن «الزائد عن الحاجة» وهو التعبير الذي اهتدى إليه عندما تبرمت الممرضة بسؤاله عن طبيب فحص الدم. والمفارقة في هذه الدورة. أن من يولد – حسب الفعل الماضي – في الأيام الخمسة المحذوفة يكون خارج الزمن. أما هو.– وهل هو حسين البرغوثي أم أي إنسان آخر من بني البشر؟ – فزائد عن الحاجة بما سيكون لا بما كان. فلأنه مريض في زمن انشغال الناس بموت آخر، موت فردي وجمعي، موت بعنف سببه الإحتلال وجنود الإحتلال، فإن المريض العادي، حتى لو كان مريض سرطان، سيبدو فضولياً، أو زائداً عن الحاجة حين يسأل عن طبيب تستدعي الحاجة إليه أن يكون بين الجرحى والقتلى وكأن المرضى العاديين ليسوا حالات إنسانية تحتاج الرعاية. وعند هذه اللحظة يهتك حسين البرغوثي حجاب الرمز، ويرى نفسه في الغريري، الحيوان الصغير، المستهدف، المستضعف، الباكي، مع فارق مهم: هو أنه، أي حسين، يدرك فظاظة جهل الممرضة، بينما الغريري لا يملك إلا غريزة الخوف. وهو حين يخاطب الممرضة بصمته الأليم لا يفهم المستوطنون الصهاينة طبيعته ولا سبب بكائه فيتهمون التراب الفلسطيني الذي أنجبه بالجنون ويعتبرون الغريري امتداداً للغوييم الذين هم دونهم في المنزلة الإنسانية.

وعندما تقوم أول سلطة فلسطينية على الجزء المتاح لنا من الوطن، سيتأمل حسين البرغوثي تلك الزنازين التي بنتها سلطات الإحتلال ويتابع «العبقرية» الهندسية التي صممت البناء بحيث يسبب عذاباً لا نهائياً للمعتقلين. وسيرسخ في روحه ما قاله قريبه جميل أبو سعدا، أستاذ البيولوجيا في بيرزيت من أنه بقي ليالي كاملة في الزنزانة الهمجية لا يستطيع الجلوس ولا الوقوف، ومع أن حسيناً لم يربط مشهد الزنزانة بمسار تأملاته في الوضع البشري خارج الزمن إلا أن المقارنة توصلنا إلى النتيجة المرعبة الواحدة: المرض كالإحتلال كالسرطان. لا فرق في المفاضلة، فكلاهما يعتدي على السنوات الطبيعية التي هي من حق أي إنسان مولود تحت الشمس. وأمام الاستحقاقات الكبرى، لا تقع المسؤولية على آلهة قمرية فرعونية خسرت خمسة أيام في لعبة دومينو. ولكنها تقع مرتين على الإنسان المعاصر. مرة ليقضي على المرض وكل ما يعذب الجسد البشري. ومرة على المحتلين بوصفهم من فصيلة الإنسان، وعلى الإنسان الطبيعي الذي لا بد وأن يعمل على انتهاء الإحتلال.

لم يقل حسين البرغوثي هذا.. لكنه أوصلنا إلى هذه النتيجة من غير تأويل مفتعل أو مصادرة على المطلوب.

بلد الحكايات

لا تحلُ سيرة حسين البرغوثي من استذكار الأصوات الطازجة الدافئة: شعر محمود درويش، بيت عتابا قديم، مثل شعبي، أمثولة موروثة، فيروز.. المزيد من فيروز. ومن فيروز يحضره غناؤها الحريري: أنا من بلد الحكايات. ولو كان حسين مجنوناً بحيث يضحي بهذا العنوان الساحر «سأكون بين اللوز» لكان من

الممكن أن يستأذن الرومانسيةَ في أن تدخله بيتها بتسمية هذه السيرة: «أنا من بلد الحكايات» .. فإضافة إلى التأملات، والتفسيرات، والقراءات المفاجئة لكل ما يخطر في الذاكرة وتتدبره المخيلة، هناك سيل من الحكايات التي ورثها هذا الرجل الذي ظل يقطر شعراً حتى آخر لحظة من حياته. مع أن شاعريته الحقيقية وجدت متنفسها الطبيعي في نص مركب كهذا الذي بين أيدينا. في «سأكون بين اللوز» شبيه بما شرحه لنا د.عبد الرحمن بدوي في «موسوعة الفلسفة» من عالم الكتابة عند الفيلسوف الوجودي الدانماركي أن يتطابق مع صفات كتاب البرغوثي من حيث أنه «خليط غريب من الاعترافات العاطفية الشخصية والتأملات الفلسفية والمقالات الأدبية وفي الكتاب تتعاقب الأجناس الأدبية: يوميات، عرض منظم، مناجيات، صور أدبية، تفسير أحلام..إلخ» وزيادة على هذه المزايا والسجايا نعود لدى حسين إلى الحكايات التي تجمع سحر الميثولوجيا، إلى مكر العقل الذي يقود القارئ، من غير مباشرة، إلى التأويل حيناً وإلى التخيل أحياناً. فلماذا قام كايد بذبح أقربائه الإثني عشر؟ إن الحكاية تكتفي بالقول إنهم كانوا مختلفين فيما بينهم. فهل كان كايد مختلفاً بدوره معهم، أم أنه كان مختلفاً مع إختلافاتهم هذه؟ إنه لا يفسر ولكنه يتحرك داخل الحدث كأحد أبطال لوركا ذوي الدم الحامي. أما زوجة كايد، الشجاع المخيف، فهي ذات اسم كاريكاتوري: سعوطة، وستموت لتناولها جرعة زائدة من السعوط ولكن لها نصيبها من الأحلام التي تدرجها في منطقة العجائب والدهشة والأسرار. على أن للدهشة ملكاً متوجاً في هذه السيرة، وهو بالتأكيد آثر، الطفل الذي سينجبه حسين البرغوثي بعد ذلك، ولكن الطفل يدهش ولا يندهش.. إنه يسأل، فقط وعلى الكبير أن يتدبر أمره بالجواب العجيب.

فآثر يرى أسماء بحراً معلقاً في الفضاء ويستفسر كيف أن الأقلام مملوءة بالأشعار التي تأتي حمراء أو خضراء أو سوداء، حسب ألوانها. ويطرح الأحاجي على أبيه المهووس بجدلية التناسخ والتقمص، ولهذا الأب أن يتواطأ مع الحقيقة فيقدم روايته عن الأشياء للطفل، ويسأله آثر: لماذا لا نتبادل فتكون أنت آثر وأنا حسين، وسيسعده ألا يصير آثر حسيناً حتى لا يموت.. ولكن كبرياءه لا تسمح له بإبلاغنا أنه يتمنى أن يصبح هو آثر لأن في هذه الأمنية النرجسية رغبة في استمرار الحياة، على حساب حق الطفل البريء في أن يكون من يشاء. أما إيمان، زوجته التي أصبح اسمها بترا، فتذهب معه ،إلى مدينة البتراء في الأردن لتكون «بترا في مدينة اسمها». هكذا يتمثل حسين قول بول كلي الذي استشهد به: «إن الرسام لا يرسم المرئي بل يجعله مرئياً».. وهو بدوره لا يخرج من الأشياء أسرارها كما أخرج ميكيل أنجلو تمثال موسى من الحجر، ولكنه أصغى عميقاً إلى نبض الوجود، فإذا بالوجود يفصح عن نفسه. أجل، لقد نجح حسين في أن يجعل العادي غير عادي وأن يدرجه في بلد الحكايات.

المواجهة السرمدية

أحسب أننا، باختتام سريرة حسين البرغوثي هذه، نكون قد أكملنا ملفاً في الثقافة العربية المعاصرة لمبدعين وقفوا قبالة الموت وجهاً لوجه وشهدوا على ما شاهدوا. ربما كانت الشهادة الأولى – على ما أعلم

بحدود إحاطتي الشخصية المتواضعة – هي كتاب «الأم» للشاعر السوري الكبير الراحل نديم محمد الذي قص على الدنيا آلامه مع السل في ثلاثة مجلدات. ثم كانت ملحمة الراحل العظيم بدر شاكر السياب من رهبة الموت، إلى التماسك أمامه، إلى كتابه الوصية «من مرضي– من الفراش الأبيض» إلى رثاء النفس:

«يا قارئاً كتابي

ابك على شبابي».

إلى التأملات الشجاعة في المصير القريب التي أفصح عنها فقيد الشعر العربي أم دنقل وهو يتحامل على الوهن وفتك السرطان الذي اكتشفه أول مرة ليلة زواجه. وأمكن الشعر العربي أن يفوز بعودة شاعرنا الأول محمود درويش من تلك المحنة الصحية، لا أعادها الله، فكسبنا بذلك جدارية تضاف، بالمعنى التاريخي، إلى المعلقات العابرة للزمن. أما الكاتب المسرحي الكبير سعد الله ونورس فقد ترك لنا أثرين خالدين من هذه الرحلة الوحشة، الأول هو الفيلم الذي سجله له صديق عمره عمر أمير الاي قبل أيام من رحيله، والثاني كتابه: «عن الذاكرة والموت» الذي كان بمثابة دفتر يوميات تشهد على المرض والألم والوطن والحياة بالتفصيل..

وما فعله حسين البرغوثي في «سأكون بين اللوز» كان فيه شيء مما كابده واكتشفه هؤلاء المبدعون، وأشياء خاصة به جمعت الواقع إلى الحلم وسجلت انتصاراً للحياة بتعميق علاقة البشر بالحجر والشجر وتأكيد تواصل الروح الإنسانية مع الطبيعة. لقد تجاوز الدَور الثالث عشر، وواصل الهبوط إلى الأعماق. وكما أن الكاميرا تعجز عن تصوير الزمان فإن الكلمات لا تحيط بهذه التجربة التي لا يعود من ذهب فيها فيها ليخبرنا عما رأى. وكان إنجاز حسين البرغوثي، في هذا الحيز المتحشرج الحرج، هو ذلك الاطمئنان إلى الحياة في الطبيعة. لقد جاء بصور الوصف الذي يوفر المقاربة الخارجية، بل كلام يذهب إلى العميق والحميم فلا تعرف ما إذا كنت تقرأ نشيداً في وادع الحياة، أم أنه فصل فلسفي تأملي في تمجيد هذه الحياة.

رحم الله أبا آثر.

حسين البرغوثي .. جاءني حين أنكرني الناس
أحمد رفيق عوض

في أواخر شهر نيسان من العام 1992، وحينما كنت أسكن غرفة ضيقة لا شبابيك لها، في بيرزيت، وحيداً، طريداً، لا أحمل سوى روايتي (العذراء والقرية)، جاءني حسين البرغوثي يسأل عني، لم أكن أعرفه معرفة شخصية، ولم يكن كذلك. جاءني على حين غرّة، تفحص المكان الذي أسكن فيه، رأى أن حمام الغرفة بعيد عنها بما يكفي للحرج. قال لي بالحرف: (أنكروا عليك إبداعك. لا بأس يا صديقي. اصمد).

ومنذ ذلك الحين، وحسين البرغوثي صديقي. صديق بعيد عن اتفاقنا في الرؤى أو الاطروحات نتشابه في التصدي للحياة، كان بلا عمل ثابت مثلي، ويسكن بالأجرة مثلي، ويتحمل مسؤوليات أسرية مثلي، نحن أصدقاء كما تعودنا في القرية أن نصادق. ولهذا استمرت صداقتنا رغم كل شيء. الاختلاف وربما التصادم، كان أيامها يخرج من بوتقة قوانين المادة إلى رؤى روحية يعاني منها. أدهش لموسوعيته، ويدهش لحساسيتي المفرطة تجاه اللغة والأشياء، وكنت أصارحه بأنه يهدر قواه في مجالات كان يمكن أن تكون أكثر جدوى، وعندما قرأ علي مخطوطة (حجر الورد) أرحته برأيي – ثم ناقشت ذلك معه بعد نشرها في الإذاعة مباشرة على الهواء، حسين يؤمن حقيقة بهذا الوعي الأعلى، وانفتاح الرؤية بوسيلة إلهامية تقوم على الجهد (العضلي) والروحي. وعندما كتب روايته (السادن) التي ما تزال مخطوطة، كنا نسهر حتى الثالثة نتناقش في تاريخ الروح العربي الإسلامي وعلاقته بمنطقة الشرق الأوسطية القائمة على ثورات روحية أكثر من أي شيء آخر. عندما يكتب فهو يشغل الجميع في إنجازاته واكتشافاته. قرأ عليّ كل ما كتب أولاً بأول. رجل مدهش ولكنه متواضع. ورغم كل ما يحيط به من أجواء معينة، فهو في داخله فلاح حقيقي وإنسان كبير. ولأني أريد أن أقول تماما ما أريد قوله.. هذا المبدع المتعدد المواهب والطاقات. صديق حميم تجده حين تطلبه.. روح كبيرة جعلت من إبداعها شيئا كبيراً، أيضاً.

عبقرية البساطة
أمجد عرار

طرقت باب صديق، ففتحت زوجته الباب، وعندما سألتها عن زوجها أجابت أنه ذهب إلى كوبر لحضور جنازة الدكتور حسين البرغوثي. لم يكن النبأ صدمة، لأن حسين كان يحتضر، ولكن ما أزعجني أنه فاتني المشاركة في تشييع هذا المفكّر الشاعر المثقف المبدع الإنسان.
عندما كان يعالج من مرض السرطان، في مستشفى الشيخ زايد، وبسبب سوء وضعه الصحي وتدهور حالته، ووصف الأصدقاء القاسي لما آلت إليه ملامحه، لم أستطع إقناع نفسي بزيارته. لقد فعلت الشيء ذاته مع عزيزين كثيرين. فعندما توفي شقيقي قبل عامين امتنعت عن وداعه ميتاً، وفي إحدى الحالات توفي أحد أعزّ أصدقائي غرقاً في بولندا، وعندما أعادوا جثمانه اصطف أصدقاؤه لوداعه، وعندما وصفوا لي ما فعل به الموت، لم أتمكّن من الدخول إلى حيث كان مسجّى. ما يدفعني إلى هذه الطريقة في التعامل مع رحيل الأعزّاء، هو شعوري أن من الأفضل أن تكون الصورة التي يستحضرها ذهني هي صورتهم وهم في أوج توهجهم، لأن الصورة الأخيرة هي عادة ما يسيطر على الذاكرة وهي أول ما يحضر على شاشة التخيل الذهني.
وعندما أتخيل حسين البرغوثي الآن يتحرّك في ذاكرتي شريط مصوّر لإنسان طبيعي، تلقائي، يخطفك من كلّ ما يحيط بك عندما يتحدّث، فهو يعطي رأياً عميقاً في أمور تبدو سطحية.

أعود بالذاكرة إلى جامعة بيرزيت عندما كنت طالباً ومضى وقت طويل خلال السنة الأولى من دراستي (1982) قبل أن أفاجأ بأن هذا الشخص أستاذ في الجامعة، كنت أعتقد أنه طالب. كان دائماً يمضي وقت فراغه في كافتيريا الطلبة، وبما أن مظهره كان بعيداً مائة وثمانين درجة عن الطابع الرسمي، لم يكن يدر بخلدي أن يكون هذا الإنسان الذي يمضي وقته بين الطلبة أستاذاً.

كنت مهتماً بالاستماع إليه في التغيرات التي طرأت على الساحة الفلسطينية، قال: لنضع السياسة جانباً، فهي مثل الاقتصاد أو لأنها تابعة له، تهبط وتعلو وتتغير أشكال التعبير عنها - كفنّ لإدارة الصراع - وفقاً لاعتبارات كثيرة، ولكن أنظر إلى رام الله الآن، وحاول أن تتذكر كيف كانت، لا أقصد الناس، ولكن رام الله الطبيعية، المصيف والمكان، رام الله كانت لوحة خضراء، أينما تقع عيناك ترى شجراً ووروداً وخضرة، فكيف هي الآن؟

لقد أصبحت كتلة حجرية، طبقات تتراكم على حساب الخضرة والجمال. ثم قطع حديثه وقال: سأذهب الآن وسنواصل بعد ساعة، هل لديك وقتاً كافياً لكي نلتقي بعد ساعة بالضبط في مكتبي؟ قلت له: بالتأكيد. والتقينا حيث أكمل حديثه عن التغييرات في الساحة الفلسطينية، ولكن من زوايا ليست مطروحة، بل وليست مرئية للكثيرين.

في أحد اللقاءات سألته: ألا ترى أن تغيّراً اجتماعياً إيجابياً قد جرى على صعيد المرأة؟ سألت هذا السؤال لحسين لأنه كان يتحدّث عن تجربة المرأة في جنوب إفريقيا. قال حسين: نعم طرأ تغيّر. لكنه تغير لا يرقى إلى مستوى الحركة الجماعية الفاعلة. يجب أن نفكّر ملياً عندما نقول «لجنة مرأة»، ماذا تعني «لجنة مرأة»؟ هل يكفي أن تكون عضويتها وقيادتها من النساء؟ أشرت إليه ليوضح ما الذي يريد أن يرمي إليه، فتابع حديثه: عندما يبعث الرجال نساءهم أو أخواتهم أو بناتهم إلى لجنة ما، ويحملن معهن نفس التوجه السياسي والاجتماعي، ويستشرنهم في الأنظمة الداخلية والبرامج والنشاطات، ثم يعدن بآرائهم وتوجهاتهم المستندة إلى انتماءاتهم السياسية، نكون حينئذ أمام وضع مشوه. هنا، أيضاً، للرجال كلمتهم. الحركة النسائية الفاعلة يجب أن تنطلق من وعي المرأة لذاتها، وهمومها ومتطلباتها ودورها.

سألته: هل تريد أن تقسّم المجتمع؟ فأجاب ضاحكاً: لا، إطلاقاً، لم أقصد ذلك. هناك قواسم مشتركة بين هموم المرأة وهموم الرجل، هي باختصار هموم المجتمع. ولكن فيما يتعلق بهموم المرأة الخاصة كقطاع نسائي يجب أن تعالج انطلاقاً من وعي المرأة أولاً بقيادتها الفعلية، ولا ضير حينئذ أن تسترشد بتجارب وأفكار أخرى بغض النظر عن مصدرها الجغرافي أو العرقي. أتذكّره كيف تحدّث عن أن إحدى القوى النقابية رفعت للسوفييت تقريراً يتحدّث عن أنها تضم مائة وعشرين ألف عامل في حين أن كل العمال الفلسطينيين لم يصلوا بمجموعهم إلى هذا الرقم! سألته: وهل السوفييت أغبياء ليصدقوا ذلك؟ قال: ربما صدّقوا لسببين أولهما أن هذا الرقم مهما بدا كبيراً ليس كذلك بالنسبة لهم. وثانياً لأن مخزونهم الاجتماعي لا يحتوي هذا النوع من المبالغة.

ذات مرّة قلت له: بصراحة البعض يتهمك بأنك تتصنع سلوكك المتواضع. ضحك وقال: الرد على هذه الملاحظة صعب جداً، وعلى كل حال، لن تقدم ولا تؤخر شيئاً، لأن الدفاع عن السلوك المصطنع وغير

المصطنع هو ذاته. صاحبا الحالتين سينفيان. ولكن بشكل عام، الناس يعتادون على أشكال جاهزة، وعندما يشاهدون اختلافاً لا يألفونه، يلجأون إلى تفسيرات تنسجم مع رؤيتهم الخاصة للهيئة التي يريدون أن يروا الأشياء عليها.

هذه نماذج بسيطة، مجرد ومضات من وجه إنسان عبقري، إنه الفلاح الفلسطيني البسيط الآتي من قريته الواعدة (كوبر) بحقولها وأزقّتها وخبز طابونها وعفوية أهلها. ليس غريباً إذاً، أن يصدر ما صدر عن هذا الإنسان من اندماج كلّي مع الناس البسطاء.

انطفاء الضوء الأزرق
أمجد ناصر

« كنت احلمني مسجونا في برج دائري مغلق، على قمة جبل يطل على جبال من غابات خضراء مشمسة، فجأة تطلق يد خفية رصاصة في رأسي ويتبعها طنين خفيف، واهوي، ويتكسر البرج منفجراً نحو الخارج، كتصوير بطيء في السينما، وأنا انظر نحو الغابات والشمس واهوي معه وفية، وكنت أرى مصابيح ملونة خضراء وصفراء وزرقاء، مدفونة تحت التراب».

مات الشاعر والناقد الفلسطيني حسين البرغوثي في وضع يشبه هذه الرؤيا التي سطرها في أحد فصول سيرته الذاتية «الضوء الأزرق».. مع فارق انه لم يمت برصاصة بل لما هو اشد مها ألماً ومكابدة: السرطان. لكنه مات مسجوناً في برج مغلق.

مات في رام الله التي تحاصرها وتقطعها الدبابات أحياء وشوارع مغزولة مثلها مثل كثير من المدن و البلدات الفلسطينية التي تحولت، بالمشيئة الإسرائيلية التي لا ترد، إلى معسكرات اعتقال جماعية، أبراج مغلقة، ولكن دون أريحية رؤيا حسين البرغوثي..دون غابات خضراء مشمسة.

كان في بلدته كوبر(...بلدة مروان البرغوثي ايضاً) عندما قطعت الدبابات الإسرائيلية أمام أنظار العالم أوصال الحياة الفلسطينية، فلم يتمكن من الانتقال إلى المستشفى التي كان يعالج فيها في رام الله. تدهورت حالته الصحية كثيراً في الفترة الأخيرة. وقد اسهم الحصار الإسرائيلي في تدهور اكثر. فالإسرائيليون لم يكونوا يسمحون للجرحى أن ينقلوا إلى المستشفيات فما بالك بالمرضى «العاديين».

لم تشهد حرب، على ما اعلم، استهدافاً للقوى المحايدة التي عملها الوحيد هو إنقاذ الحياة مثلما كان عليه الأمر في حرب شارون الأخيرة على الفلسطينيين. لا تفسير لاستهداف المستشفيات، سيارات الإسعاف، الطواقم الطبية إلا قتل الحياة بالمعنى البيولوجي للكلمة. فالجرحى ليسوا سوى خطأ أو عجز للسلاح، فالمقصود هو أن يكونوا قتلى.

فكم من الجرحى والمرضى ماتوا لأنهم لم يتمكنوا من الانتقال إلى المستشفيات؟

لن تعرف ذلك الآن.
ولكن الفاجعة ستتكشف فصوليها لاحقاً.
في ذروة هذا الموت الفلسطيني العميم مات حسين البرغوثي، لكنه كان «محفوظاً»اكثر من غيره. إذ أمكن نقله في أيامه الأخيرة إلى أحد مستشفيات رام الله. مات محاطاً برفاقه في«بيت الشعر» الفلسطيني.
قال لي غسان زقطان الذي أمضى الأيام الأخيرة إلى جانبه في المستشفى: لقد عوضت غيابي عن موت ميشيل النمري وجميل حتمل!
قد لا يكون حسين البرغوثي معروفاً في العالم العربي لكنه بالتأكيد معروف في فلسطين.
فقد لعب دوراً ثقافياً طليعياً في الضفة الغربية وقطاع غزة (.. وربما في فلسطين المحتلة العام 48، أيضاً) في الوقت الذي كان يفرض فيه الاحتلال الإسرائيلي أمية ثقافية على الفلسطينيين من خلال قطعهم عن السياق العربي.
كانت الأواصر الثقافية بين فلسطين (بكل إجزائها) وبقية العالم العربي يشبه مقطوعة.
لا الكتب التي تصدر في العواصم العربية تصل.
ولا سجالات الحداثة والتجديد وصراعات المذاهب الفنية والفكرية تسمع بقوة هناك.
حتى العلاقة مع المشهد الإبداعي الفلسطيني في الشتات كانت ملتبسة. إذ بدت لواحد مثلي يعرف الساحة الفلسطينية، أشبه بمحاكاة باهتة.
في وضع معوق، قصداً، كهذا كان لحسين البرغوثي الشاعر والمثقف القلق والأستاذ الجامعي الاستثنائي ما يقوم به.
فهو حاول أن يشبك الكتابة الشعرية في فلسطين المحتلة بالكتابة الشعرية العربية في الخارج. أن يصل ما انقطع، فكتب شعراً متقدماً عما كان يكتب في الساحة .. وطرح أسئلة نقدية جديدة، فميزة حسين البرغوثي ليست معرفته بالسياق الإبداعي والعربي الأفضل، نسبياً، من غيره من المثقفين الفلسطينيين في «الداخل»، بل كذلك إطلاعه على ما يكتب عالمياً عبر معرفته أكثر من لغة أوروبية، أهمها، بالطبع، الإنكليزية.
ويبدو أن الفترة الأبرز على هذا الصعيد هي التي أعقبت عودته من أميركا بعد نيله شهادة الدكتوراه في النقد المقارن وعمله أستاذاً في جامعة بير زيت.
ففي هذه الفترة بدأ المشروع لحسين البرغوثي يتبلور (.. رغم التشعب الذي انطوى عليه) ويتضح أكثر في المشهد الثقافي الفلسطيني الداخلي، وخصوصاً في جيل من الشعراء الشبان الذين كانوا طلاباً عنده في الجامعة ورفاقاً، لاحقين، في رحلة الكتابة.
فهو، بشهادة كثيرين، كان أستاذاً جامعياً لم يعرف طلال جامعة بير زيت التي لا تختلف مناهجها شبه التقليدية عن نظيراتها في الأردن، مثيلاً له، سواء من حيث الأسلوب الحواري في التدريس أو المقاربة المغايرة لمادة الدراسة.
لكن نشاط البرغوثي كان من الإتساع والتشعب بحيث لم يقتصر على حقله الأثير: الشعر، بل تعدّى ذلك

إلى الرواية والمسرح والنقد وكتابة الأغنية.
ومن تابع تجربة فرقة «صابرين» الغنائية الفلسطينية التي حققت نجاحات فلسطينية وعربية يعتد بها لا بدّ يعرف أن أهم أعمالها كتبها الراحل حسين البرغوثي بحس يمزج بين قوة تعبير المفردة الشعبية وخيال القصيدة الحديثة.
لا أستطيع أن أموضع، الآن، كتابة حسن البرغوثي الشعرية في السياق الشعري الفلسطيني بسبب قلقها وطابعها التجريبي ولكنها، بالتأكيد، كتابة مهجوسة بالسؤال الوجودي العميق.
ولعلّ هذا البعد يتبدى بصورة أسطع في سيرته «الضوء الأزرق» التي اعتبرها فريدة بين السير الفلسطينية لما تتضمنه من قلق وتقلبات نفسية وروحية عميقة، وكذلك، أيضاً، لما تضمنته من تحليل ونقد، لا مجاملة فيهما، للذات.

*

لم ألتق حسين البرغوثي سوى لقاءين عابرين واحد في الرباط والثاني في عمان، في اللقاء الأخير كنت أعرف أنه مصاب بالسرطان، لكن علامات المرض لم تكن تبدو عليه.
كان ذلك في صيف العام الماضي، كان يرتدي، كما رأيته في المرة الأولى، قميصاً مخططاً وبنطلون جينز وينتعل صندلاً جلدياً، شعره مفلفل يميل إلى الشقرة وفوق عينيه الغائمتين (هل هما زرقاوان؟) نظارتان مدورتان.
كان هادئاً .. ورما فرحاً، أيضاً، فقد أخبره الأطباء في عمان أنه شفي من المرض اللعين، لكن الفرحة لم تدم، فقد اكتشف أن السرطان كمن قليلاً، غير انه لم يبرح، فهو لا يزال يسكن الرئة، يشاطره الهواء القليل نفسه.
لكن كفاحه الصامت ضد السرطان لم يمتص طاقته كلها ولم يضعف عزيمته على الحياة والكتابة، فقد كتب في سنين السرطان الثلاث أهم أعماله.

.....

سأله أحد الذين لازموه في أيامه الأخيرة بالمستشفى لما وجده ساهماً: بماذا تفكر يا دكتور حسين؟
فقال البرغوثي: أفكر في .. أن التفكير بالجمال يفسده!

.....

أظن أنه مجرد أن يفكر شاعر وناقد فلسطيني في مسألة الجمال وهو راقد على سرير الموت في مدينة محاصرة كرام الله .. هو هزيمة لشارون..
شارون الذي يريدنا أن ندب على أربع.

لندن

فيلسوف الشباب والطلبة
تيسير مشارقة

هو منا وبيننا ومثلنا و(مختلف) فينا وواحد من المرجعيات المهمّة في حياتنا، نحتاجه في ظل غياب المرجعيات الثقافية.. فالانكفاء الذي حصل ثقافياً عندما يعود لانعدام التواصل مع نفس السلف الذي تراجع القهقرى في الواقع، ما جعلنا ننحبس في أصداف ونحجم عن الإفصاح أو البوح.

وعندما بدأت ذاكرتنا (كجماعة بشرية) تتراجع بسبب اندحار كثير من الشخصيات المقنعة التي تمثل الأسلاف، وهذا ما سماه الأديب الحائز على نوبل وولي سوينكا (طقس الأسلاف) المعروف باسم التنكر (ماسكارادا)، ما زال أديبنا (د. البرغوثي) حاضراً ينعش ذاكرتنا بعبق ألوانه، وبكلماته الملهمة.

ويمكن فهم حسين البرغوثي باعتباره ظاهرة (حالة) ثقافية فلسطينية، من ثلاثة جوانب:

(1) باعتباره قائد رأي شبابي له مريدون، يعد بحق (فليسوف الشباب والطلبة).

(2) أديب له كتابات تجريبية رائدة.

(3) وأكاديمي (خلافي) جمعتني معه رؤية (ثورية) ضد المسلك الأكاديمي التقليدي والمتخلف (المدعي) في بعض الجامعات الفلسطينية.

أولا: كشخص، يعد حسين البرغوثي (حالة ثقافية فريدة) كاريزماتية، بوسع شبابنا وطلبتنا أن يتحدثوا بطلاقة لسان وما يشاؤون في حضرته، فكثير من المريدين له يستطيعون أن يهمسوا في أذنه متحدثين عن رغباتهم الحميمة والدفينة، عن أفكارهم ومشكلاتهم. هو حاضر فيهم أينما كانوا، في المقعد الجامعي، أو في (كان ياما زمان)، في المسرح أو على الأرصفة.

إنه يسكن في عقول وقلوب كثير من الشباب الفلسطينيين كملهم وطليعي ونيتشوي وقلب يرقص على نحو غير مألوف، ويعد البرغوثي واحداً من اكتشافات الشباب المهمة والمميزة. لذلك هو رمز لحريتهم وطموحاتهم وتطلعاتهم يحفظون أشعاره ويرددون كلماته عن ظهر قلب، ويتداولون كتبه المفقودة في الأسواق بحرص شديد، ويقولون: (هكذا تحدث د. حسين البرغوثي)!!

ثانيا: كأديب وفنان ومثقف من طراز كوني، استطاع البرغوثي أن ينقلنا إلى عوالم أخرى مشوقة غير مدركة، أخذنا في رحلة مزركشة بدرجات الأزرق، أزرق المحيطات، وأزرق الجينز، وأزرق قمصان العمال.

ثالثا: كأكاديمي ومفكر، خلع د. البرغوثي ثوب الأستاذ الجامعي التقليدي، لينزل إلى الشارع والرصيف، مدركا أن التعليم يأتي من القاع الثقافوي العميق في تحويلات لا منهجية بعيداً عن التباس حالة كمفكر يقول: (الجامعة وجدت لكي لا يتعلم الإنسان الكثير).

ولأننا هنا بصدد تقييم تجربته الإبداعية والفكرية، نقول باختصار، أيضاً:

يمتاز إبداع د. حسين البرغوثي بالعمق وبصوفية ذهنية تحتاج لمساحة مناسبة من الوعي المعرفة ومستوى عالٍ من الثقافة لفهمه، ومن هنا نخبوية هذا الإنتاج الإبداعي، ولكنه في آن سهل وممتنع.

البرغوثي، يعيش حياة فيها شوق ورغبة وانتظار، يرغب في التحليق دائماً في الأزرق العالي محتجاً على القيود والأنظمة، كطائر محلق وحيداً في الأعالي والبراري الواسعة. وهو ثالث مفكر فلسطيني ألتقيه، وتشغلني طروحاته: د. فهمي جدعان (فيلسوف التواصلية العربية)، والكاتب رسمي أبو علي (فيلسوف الرصيف) ود. حسين البرغوثي (فيلسوف الشباب والطلبة).

ويعرف البرغوثي أنني أحب فيه اقتحامه لحيوات غير معرفة، وغير مأهولة، فهو مشوق ومبدع ويتمتع بالفرادة والتميز.إنه، أيضاً، يمتاز بالغرابة وتطلعه لشيء ما غير موجود (ربما إلا) في الأزرق. وبمتابعة جادة لكتاباته الشعرية والنثرية وأحاديثه ونمط عيشه، يستطيع الناقد تلمس إبداعية راقية ترتقي إلى أن تكون ظاهرة كونية.

هل حقاً تتقن الموت كالآخرين
جهاد هديب

يا أخي.. يا حبيبي وسيدي؟!
الجبل
أخذته الريح،
المشى
في الجبل كما لو أنه كان.

حسناً إذاً
عليّ الآن أن أُفرغ الخزانة من الصور
ثم آخذها إلى النهر
كي تطفو من الغرقى الذاهبين

حسناً إذاً
لن أطيل مكوثاً أمام الخزانة
أعدك بذلك،
رغم أنك لم تأخذ هديتي معك.

كنت ادخرت لك شيئاً يشبه البوح
سأملأه الآن بريش طائر التم
الذي أوجعنا صراخه بيننا
ولم أكن لأصدق أنك ربيته في النثر.

*

حسين البرغوثي
أنت الآن ميت
وعليّ أن أتعايش مع فكرة أنك لن تأتي إليّ مرة أخرى؛ لن يفاجئني مرّة أخرى أنك تجلس في مكتبي في الجريدة .. يا إلهي، هل يموت المرء تماماً؟ يا إلهي هل ثمة أربعاء في الأسبوع؟ هل ثمة فجر ووقت يُسمى: الرابعة وست عشرة دقيقة؟
وعليّ أن أصدق استسلامك لتوحش المرض الذي حملك إلى غيبوبة، ثم طفوت على العمر والأرض وفكرة الزمن حتى أخذك النهر إلى البياض فدخلت.
كان اتفاقاً مضمراً أننا نكره الوداع.. في آخر مرة تودادعنا لم تلوح لي بيدك، ولا أذكر أن أعيننا قد التقت لتقول شيئاً ثم نمضي.
لم أكن في الردهة مع إيمان وغسان ومحمود عندما أعلن الطبيب وفاتك.. كل ما تناهى إليّ أن (وضعك) صعب فخفت.. فجر الأربعاء وخزني قلبي أنا الذي أصحو في الرابعة كي أوقظ الفجر، ثم أودعه في الشعر والكتابة.
هذا فجر وثمة صوت فيروز له وجه فلسطين.. حزينة ودامعة دائماً وتترنم بتراجيديا أبدية: «يا يسوع الحياة، في قبر وضعت».

*

قل لي إنك مشيت إلى ثلاجة الموتى وأنت تذكر شيئاً عن طائرك الذي بعد أن قال لك شيئاً مبهماً مات .. هل يحدثك عن عالم آخر أجمل تذهب إليه، كي تخرج من تجربة المرض الفذة على هذا النحو؟

*

أصنع القهوة وأضع فنجانين أمامي، أملأ واحداً وأبقي الآخر فارغاً، وكلما تناقصت القهوة أخاف النظر إلى الفراغ فيهما، أخاف النظر إلى خداع اللغة، وأخاف النظر إلى فكرة الموت أنا لم أعتد النظر إلى العالم من شرفة أفلاطونية فلا تدفعني إلى التأمل فيك من بعيد، ثم إنني أحتاج إلى رأيك في كتابي الأخير فكيف تمضي في مثل هذا الوقت غير الملائم دون أن تنادي عليّ، أنا لم أكن ألهو في الحديقة، بل في جوار

الهاتف الذي خفت كلما رن وظهر رقم غريب: أنت وأمي، أتوقع حدوث شيء لأحدكما، هو الموت الذي لم أعهده قريباً إلى هذا الحد.
من أين أتيت بكل هذه الجرأة كي توقف الزمن في الرابعة فجراً ثم تقطف الشمس، فقط كي تكون بين اللوز؟ كيف تؤول إلى هناك وأنت الذي عبثت روحك بمصير شخصك، وتمردت عليه؟ وأنت الذي قدته أمامك فرضي، ولم تقدم شيئاً لفكرة العائلة والطفولة والقرية إلاّ في التذكّر؟

*

هل كنت مثل الموتى الآخرين، أولئك الذين يتقنون الموت تماماً؟ هل حقاً أحسنت صنع ذلك؟
بالنسبة لي، لم أرَ ذلك، ولذلك لا أرى جدوى من تماوتك، ومن خداع اللغة وخداع الموت، وسأصدق كل ما أرغب فيه: لديك شيء ما تود أن تقوله لي منفردين أو بين الآخرين، بدوري سأشيع أنك تأخرت عن مفاجأتي بوجودك في مكتبي في الجريدة فقط، لذلك سأتذرع وأهاتفك ثم أسمعك، سأهاتفك لأقول:
صديقي
يا حسين البرغوثي
تمهل
يا حبيبي
يا أخي
يا سيدي

رحل ولم يرحل
حافظ البرغوثي

رحل الدكتور حسين البرغوثي الأديب المثير للجدل .. المحاضر غير المألوف .. الشاعر المرهف .. والمفكر الديالكتيكي .. كان له عالمه الخاص .. وفكره الخاص.. تحول إلى بؤرة جذب لتلاميذه المخلصين .. ونقطة ضوء في ظلام فكرنا أحادي الجانب .. عاش الاجتياح الوحشي في غيبوبة . وعايش اجتياحات وحشية لفكره التنويري في يقظة مغيبة فلم يدخل في معارك جانبية .. ظل بسيطاً .. أقرب إلى الناسك في قوقعته الفكرية.. لا يمل الحديث.. ولا يمل الإصغاء.. ولا يمل البحث والتفكير.
فاجأه المرض لكنه لم يستسلم .. وكان مبعث مرضه الآخر هو عدم معرفته بالمرض .. اختلفت التشخيصات

حول كنه المرض .. عولج بأدوية شتّى وأخضع لتجارب كثيرة، صار علاجه مرضاً بحدّ ذاته .. فالدواء تحوّل إلى داء .. والجسد نفسه يكابد هذا العذاب المتّصل حتى انهار .. كانت نصيحتي الأخيرة أن أقلع عن الدواء .. وعشّ أيامك في الريف .. تداو بالأعشاب. لكن الوقت متأخر لا يستطيع الطب العشبي أن يرمم جسداً تآكل بفعل الكيماويات وجلسات الأشعة .. وتجارب طبية متعددة .. يرحل حسين بفضوله الدنيوي الفكري .. رثاهُ أصدقاء وزملاء منذ شهور .. أحدهم، وهو رسمي أبو علي، أرسل إلينا مقالة رثاء فيه من عمّان ظنّه اختزل حياته وجمع أوراقه ولملم أفكاره وغاب .. تحدثت مع حسين .. أبلغته أنه الوحيد الذي يرثى وهو حي يرزق .. وتمنّيت له طول البقاء رغم الرثاء .. كان في الرمق الأخير قبل الاجتياح بأيام يعبر الحاجز الوحشي عند سردا مشياً على أقدامه المنتفخة في طريقه من كوبر إلى رام الله لمراجعة المستشفى .. توقفنا تحت الشمس بعض الوقت، تحدثنا في الطب العشبي قليلاً .. وتواعدنا على اللقاء .. ولم نلتق .. لم يكن يخشى الموت .. لكنه كان يستصعب المرض المجهول .. حتى عندما كنّا نلتقي في عزاء أحد أقربائه الأعزاء .. كان يبدي تقبله للموت دون تشنّج أو عصبية .. وأظنّه غاب كذلك .. رحل ولم يرحل .. تماوت كما يفعل العباقرة.

حسين البرغوثي، منتهى الشيء مبتداه!

حسن البطل

يأخذه، يأخذ جسده مدار السرطان، فينحاز حسين جميل البرغوثي، نزيل الغرفة رقم (5) في مستشفى الشيخ زايد، إلى مدار الجدي، ينحاز بعقله أو ينحاز بروحه؟ أو هي المصادفة، التي جعلت آخر خير جليس في ساعاته الأخيرة، أيامه الأخيرة، كتاب هنري ميللر:«مدار الجدي»؟!

أخذني هذا «الفلسطيني الشامل» أبو آثر إلى مدار الإنسان في مدينة سياتل، أقصى الساحل الباسيفيكي للولايات المتحدة، ثم أخذني هذا الفلسطيني المتكامل إلى مدار مكانه في خربة «الدير الجواني»، مهده الأول، رائعة «الضوء الأزرق» عن مداره الكوزموبوليتي ورائعته «سأكون بين اللوز» عن ثقبه الأسود مكان – مهد طفولته.. ومثواه الأخير.

هل يستوي الذين يعيشون موتهم – حياة، وحياتهم – موتاً مع مدار السرطان(الذي يأخذ حطام الجسد – جسده) مع الذين يعيشون موتهم موتاً وحياتهم حياة.. على مدار الاستواء ليكن «مدار الجدي»!

أهدانا مالك بن الريب، الشاعر الفارس «الجاهلي»، ما قد نراه أروع رثاء شعري ذاتي: أهدانا حسين جميل البرغوثي، وهو الشامل: نثراً و شعراً، ومسرحاً ونقداً، ما قد أراه أروع رثاء نثري ذاتي: «سأكون بين اللوز».

قالت له أمه (وقد شربت قهوتها، وأكلت من خبزها): إذا أوشكت نفسك أن تفيض بسرك الذي لا يستحقه سواك.. فاذهب مع بذرة لوز، واريها التراب وسرّك.. وعندما ينوّر اللوز سيعود سرك إليك، «نور اللوز، رأيت الله»، قال الشاعر الإغريقي في رائعته «الطريق إلى آل – غريكو».
حدثنا حسين جميل البرغوثي، في آخر زيارة لي إلى بيته الجديد – الغريب في قرية كوبر، أن السرّ قد تلتقطه نحلة من نوارة اللوز، أو عصفور يدب بالسرّ إلى السماء التي تنوء بحمله، فتلقيه على مناكب الجبال، التي تلقيه على أفنان الشجر، التي تهديه لعصفورة مغردة.
وحدثنا حسين جميل البرغوثي المشاغب – الوديع – أن بذرته الوحيدة «آثر» التقطت كنه السر، كان الأب يساعده ابنه في بذر بذور الفجل، وما شابه من بذور صغرى. وينعف عليها قليلاً من التراب، سأله «آثر» عن سبب نعف التراب، فأجابه «أبو آثر»: حتى لا يسرق العصفور المشاغب – الملعون البذور، سأله آثر أن يحاول بذر الجواب على السؤال: لنزرع بذور صغيرة فلا تسرق العصفورة البذرة والسر!
ليس لهذا «الشامل» حسين البرغوثي، وهو الملتهب دائماً، أي شأن بالمدارين الأخيرين لكرة الأرض: الدائرة القطبية الجنوبية.
عنده هو توازن الإنسان – المكان، مجاهل إنسان فوضوي، ملون، مثقف في مدينة سياتل، وألغاز المكان في «الدير الجواني» «الضوء الأزرق» و«سأكون بين اللوز».
.. في حزمة ساعات يومه الأخيرة، أو مدارات أيامه الأخيرة، في الغرفة رقم خمسة، بدا لنا واهناً، قعيداً، مكبلاً بثلاثة قيود – حيال حياة. قيد يحصي عليه ضربات قلبه (قرأت رقماً هو 23) وقيد يحصي عليه أنفاسه(قرأت رقماً هو العدد 27) وقيد ثالث يعد على رحيق روحه نسبة الأوكسجين في دمه (قرأت رقماً هو 88).
تحت هذه الأرقام – القيود – الخطوط المضيئة ذات الألوان المختلفة: أزرق، أبيض، هنالك علامة استفهام حمراء، راسخة، بينما تتذبذب خطوط الأرقام صعودا.. ونزولاً.
خلال خمس دقائق في الغرفة رقم خمسة يوم الخميس توقف خط إحصاء التنفس عن التذبذب وتوفق خط إحصاء الأكسجين، وارتسمت علامة استفهام، أحس حسين بشيء أحسسنا به على نحو آخر، سألني بعينيه ولسانه:«أنا مش فاهم»؟ هل اكتسح مدار السرطان في جسده مدار الجدي في عقله وروحه، ليس بعد، سارعت الممرضة إلى إحياء ذبذبة الأرقام.. ردحاً من الأيام.
كان حسين جميل البرغوثي يقظاً بجسده، وكان يحلم بعقله، تذكرت نص المقابسة 26 من مقابسات سيدنا العلامة أبو حيان التوحيدي:«اعلم أن اليقظة التي بالحسّ هي النوم، والحلم الذي بالعقل هو اليقظة».
أعرف هذا الانتفاخ في جسد مريض السرطان، رأيته علامة وداع صديقي طلال همداني، وزميلي خليل عبد ربه، وشقيقتي آمنة، أعرف هذا الاحديداب الزائد في إنسان عين المريض، إنه مكابدة الروح للخروج من ربق الجسد، تخرج الروح من الفم، أم تخرج من فتحة العين؟ ولماذا، إذاً، يسبلون جفونه، ربما حتى لا يرى الحيّ لون البياض أو نظرات البياض في انطفاء الروح.
«اقرأ» من المهد إلى اللحد، وخذ معك إلى آخر مدار سرطان الجسد كتاب «مدار الجدي» سأقرأ كتاب

هنري ميللر من جديد، لأعرف سرّ محمد بكري في اختياره هذا الكتاب، من مكتبة الناصرة على اسم أبو سلمى ليكون رفيقاً أخيراً لرفيقه في رحلته إلى آخر مدار السرطان!

نرى مريضنا خلسة، بنظرات مختلسة فإذا نظر إلى عيوننا، هربنا بها إلى آخر القطب الشمالي، القطب الجنوبي.. نجم القطب.

همساً، كان الزوار يديرون السؤال في الغرفة رقم خمسة: هل استحق هذا«الشامل»، هذا الزمكاني، هذا المدرحي (توازن الروحي – الجسدي).. جائزة فلسطين؟ أن كانت الشائعة صحيحة، فلماذا تأخروا ستة شهور في إعلان أسماء الفائزين؟

أبو آثر، حسين جميل البرغوثي، أهدانا في رائعته: «سأكون بين اللوز» قمة الإيثار، عندما اكتشف سبب مرضه، راح يرقص: انه السرطان إذا، وليس الإيدز مثلا،وهكذا سأرحل أنا، وسيبقى ابننا آثر في كنف أمه بترا.

سينور اللوز العام القادم في أوانه: «نور اللوز.. رأيت الله» شجرة لوز بذر حسين بذرتها وأودعها سره، ستنور بعد سنوات في الدير الجولاني – كوبر – رام الله – فلسطين.

سيعرف آثر سرّ اللوز، وسرّ الدير، فهو سرّ أبيه.. لكنه لن يعرف السر الطفولي: لماذا لا نزرع بسه صغيرة لتطرد العصافير عن التقاط بذور السرّ في التراب.. والهرب بها إلى السماء؟!

يقول الهنود الحمر(والفلسطينيون، أيضاً): كل نجم في السماء روح صعدت من مدار السرطان، ومدار الجدي، إلى المدار الأعظم.

«منتهى الشيء مبتداه»!

ظلّه كبير بحجم غيابه

حسن خضر

كنّا نعرف، وكان يعرف، أن أيامه في هذه الدنيا قليلة. كان التواطؤ لعبة مقبولة ومتبادلة، ليصبح الكلام عن المرض مجرّد إشارة عابرة في نقاش أكثر جدية حول قضية من قضايا المعرفة. فتلك هي ميزة حسين البرغوثي: محاولة القبض على المعنى، لا عن طريق اقتصاد المقايضة الثقافي، بل بواسطة الاستثارة الذهنية، التي ترفع من شأن كيفية تحقيق المعرفة، ولا تحجم عن التساؤل حول أدواتها، لتحقيق متعة عقلية خالصة، أو ما يشبه الخلاصة.

وقد كان، بهذا المعنى، وسيلة إيضاح حيّة وحيوية، لما ينبغي للمثقف أن يكون عليه، في ثقافة يلتبس فيها الفرق بين منتج الأدب ومنتج المعرفة، بقدر ما يتعلق الأمر بتعريف مفهوم المثقف. فمنتج الأدب ليس مثقفاً، بالضرورة، خلافا لمنتج المعرفة، الذي يستمد ضرورة دوره الاجتماعي من ذلك التعريف، ومن كون الهم المعرفي شرطاً من شروط وجوده. قد يتمكن شخص من الجمع بين الصفتين، وهذا، أمر شائع، لكن

التلازم ليس شرطاً في جميع الأحوال. ولعل ما يعزز من الطلب الملح على ضرورة التلازم تلك الرومانسية، غير المبررة حسب ميشيل فوكو، التي يغزوها الأدب لنفسه، وإشكاليات الدور الاجتماعي للمثقف، كما بيّن إدوارد سعيد. وقد عرفت الثقافة العربية ذلك الفرق حتى مطلع القرن العشرين، عندما جرى التمييز بين أنواع رفيعة وأخرى «وضيعة» من الأدب، ما حدا بالدكتور محمد حسنين هيكل إلى حجب اسمه عن غلاف الطبعة الأولى لرواية «زينب».

لكن حسين البرغوثي حقّق ذلك التلازم الدقيق، فعمل في حقل الشعر، كمن يحاول البرهنة على ما ينبغي للشعر أن يكون عليه، بقدر ما يتعلق الأمر بعلم الجمال، وكتب في حقل السيرة الذاتية، كمن يحاول البرهنة على نجاح النص المفتوح في تبديد وهم التضارب بين الفلسفة ولغة الشعر، وكتب للمسرح بطريقة تمكنه من تفسير عبارات قد تبدو عادية بتأويلات مستمدة من الميثولوجيا الإغريقية، وفلسفة الأنوار الأوروبية، والثقافية العربية الكلاسيكية.

وهذه وتلك معارف كان بتكوينه الأكاديمي المحترف يعرف الفرق بين الكلام عنها عن طريق السماع، أو المصادر الثانوية المختزلة، كما يفعل أشخاص لا حصر لهم، وبين الإطلاع عليها حسب الأصول، بقدر ما يستدعي الأمر من تعب العين، ووجع القلب، وكد الذهن. وهذا ما فعله، دائماً، بطريقة مدهشة في كتابات ونقاشات أنفق فيها ساعات طويلة من عمره القصير.

وقد اقتسمت معه بعض تلك الساعات في أوقات سابقة، لكنني خشيت على ما تبقى له من وقت في هذه الدنيا عندما سألني في غرفته بمستشفى الشيخ زايد في رام الله، قبل وفاته بيومين عن دراسة قدمها «للكرمل» بعنوان: «قصص من زمن وثني». كانت الكلمات تخرج من فمه بصعوبة، لكنه كان مهتماً بفتح نقاش عن الدراسة، وعن موعد نشرها في «الكرمل». وهي، بالمناسبة، آخر ما كتب، ويحاول من خلالها استبطان العصر الجاهلي، وعلاقة أوزان الشعر بميثولوجيا الشرق الأدنى القديم، بطريقة سردية يمارس فيها دور الراوي، ويتقمص شخصية مراقب عاش في ذلك العصر.

ربما تبدو أشياء من نوع الرأي، أو موعد النشر، أو نقاش أساطير العصر الجاهلي، بلا أهمية بالنسبة لشخص يحتضر، لكن حسين البرغوثي كان مخلصاً لما عاش به ومن أجله، أي قضية المعرفة، حتى الرمق الأخير. كانت الأسئلة، ورغبته الحارقة في نقاش أعلى من الكلام عن المرض والعلاج، طريقته في إضفاء المعنى على ما تبقى له من وقت قبل الرحيل. لذلك، كانت سنوات ما بعد اكتشاف المرض هي الأكثر كثافة وحيوية في نشاطه الأدبي والفكري، الذي توّجه بسيرة ذاتية هي الأجمل بين ما كتبه الفلسطينيون في هذا السياق.

ففي «الضوء الأزرق» استدار إلى زاوية مهمة في موضوع السيرة الذاتية، وهي استبطان شخصيات هامشية وحياة لا تحفل بتغيرات دراماتيكية كبيرة من نوع الحروب والكوارث، لتحويل الهامشي، وما يشبه الراكد، إلى موضوع لتأملات فلسفية وجمالية عميقة وذات طبقات متعددة من المعاني، وهي طبقات بررّت للبعض تفسيرها كتجربة صوفية، لكنها لم تكُ كذلك، فالصوفية تشترط الميتافيزيقيا، رغم ما تتسم

به من حسّية عالية في تجليّاتها الأدبية على الأقل، وما ينطوي عليه من احتمالات تمكن بصيرة نادرة من القبض على بعض معانيه، وتلك معادلة سبق لغسان كنفاني إيجازها في عبارة بديعة:
«في الواقع خيال» أكثر من الخيال نفسه، وفي الخيال واقع أكثر من الواقع نفسه، وذلك ما يراهن عليه حسين البرغوثي بالتدليل على كثافة المعنى المضغوط في كينونة لا تلفت الانتباه.
ولعل تلك العلاقة العميقة والمعقدة بالواقع هي ما يفسر تمرده عليه، بقدر ما يتعلق الأمر بالمعرفة، أو بنمط الحياة والتقاليد اليومية والمهنية المألوفة بالمعنى الاجتماعي. فالمؤسسة الأكاديمية الفلسطينية لم تستطع التعامل معه، ولم يكن في هندامه وسلوكه وأفكاره ما يساعدها على تحقيق قدر من المصالحة.
لا يصعب العثور على أشخاص اشتروا شهادات مزيفة لإضافة لقب الدكتور إلى أسمائهم، أو حصلوا على شهادات قليلة الأهمية من جامعات تافهة، حرصا على اللقب في مجتمع يقوم على الوجاهة والتراتبية شبه الريفية. لكن حسين البرغوثي كان من طينة لا تغويها الألقاب والوظائف، ولا تستكين إلى قوالب متعارف عليها، بل تنتج نموذجها الخاص، ومثالها الفريد، الذي ينسجم مع فكرة البطل – الضد، أكثر من انسجامه مع فكرة المواطن الصالح.
وبهذا المعنى كان نموذجاً خاصاً، ومثالا فريداً لما ينبغي للمثقف أن يكون عليه، وبهذا المعنى، ،أيضاً، يُقاس حجم الخسارة التي لحقت بنا، في زمن يحفل بالخسارة. ومع ذلك، ورغم ذلك: كان، دائماً، ما سوف يكون. عاش كما شاء، وعاد إلى ظلال اللوز، كما شاء، لكن ظله فينا وبيننا سيبقى كبيراً بحجم غيابه.

وبعد أيها الهارب من اللقب ..
خالد جمعة

قد يمضي وقت طويل قبل أن أفهم لماذا لم تفتح جرحك عقاباً لهؤلاء المترامين على الطرقات مثل هواجس ليلية قاتمة، ولأنني اعتقدت أنه ليس من الضروري أن أفهمك، فقد اكتفيت بما أوصلتني إليه النصوص من حالات، ورحت أشتم اللغة العاثرة التي تطاوعك، ولا تطاوعني، لكنني فجأة اكتشفت أنني إنما أبرر انسجامك مع ذاتك عبر اللغة، وأن اللغة لا تطاوعك راضية، بل مرغمة. قلت، هذا الرجل يجب ألا يكتب شعراً، فإنه يكتب رواية جميلة كالضفة الثالثة لنهر الأردن، لكنني انسحبت حين أرقني نص ذبح جهاز الكمبيوتر لخمس ليال فيما أقوم بطباعته وتشكيله بدقة كما كتبته، كانت كل كلمة مكتوبة وغير مكتوبة تحتاج إلى عناية خاصة، فاكتشفت من خلال حجر الورد أن هناك من يستطيع أن يفعل باللغة أشياء تختلف عما يفعله بها الآخرون ومن ضمنهم أنا.. وجدت رجلا ينحت في اللغة، يضحك ملء شدقيه على المفردة المغتاظة دون أن تستطيع فعل شيء غير أن تكون ما يريد، ولهذا عدت لأقول هذا الرجل يجب أن

يكتب شعراً.. وكنت غير معني بي في الحالتين.
من أين تجيء بهذا الانسجام؟
وهل ما زال أولئك الذين في الجامعة ليتساءلون عن لباسك وحذائك وطريقة تصفيف شعرك؟ أم أن أشياء أكثر أهمية شغلتهم كي يتركوك وحدك..؟
كنت أعرف رام الله شبراً شبراً، وعادة ما كانت ترتبط لدي عند ذكرها بصبية من جميلاتها أحببتها ذات يوم، وعندما عرفتك عن قرب، أصبحت تخطر لي كلما تجيء رام الله، ولعل أغنية (مرات بمشي لحالي) قد أعطت هذه الصورة لك ولرام الله، فاكتشفتك مرة أخرى في الأغنية، وأخرى في النقد، ولم استطع مرة أن أكمل حواري معك؛ لأنك كنت تتكلم كثيراً – أعتقد أنك ما زلت – ولكنني لم أكن أمل ذلك.
هروبك من لقب (دكتور) يعجبني، وأجد فيه تحطيماً لصورة من يعتبرون اللقب نهاية العالم وهم لا يعرفون أن العالم لا نهاية له، معرفياً على الأقل.
قد يمضي وقت طويل قبل أن أكتشف أنني لم أفهمك فيما ادعيت أنني فهمتك فيه، لكنك تمضي، وقدماك تحرثان، ما زالتا، إسفلت رام الله.
لن أعتذر لك لأنه رام الله تغيرت – أبنية وبشراً – لأنني لم أرد ذلك، وستصدقني حين أقول لك أن هذا حدث رغماً عني، وربما رغماً عنك. لا أعرف، ومن هنا، صارت أمامك مهمة جديدة تقتضي نحت لغة تستطيع السير في ليل رام الله، فربما يسعفك الوقت كي تبدأ بالنحت، وربما لا ترغب أصلاً في ذلك، لكن الخبر صار صحيحاً... ورام الله تغيرت وانتهى الأمر...
عزيزي حسين ..
لا أعرف أين تكمن المأساة، وربما نحن المأساة والباقي يرانا كذلك، لكن خللاً يصارع خللاً، ولن ينتهي الصراع إلا بخلل ثالث وتمضي الدائرة، وربما سيجيء يوم ويقف واحد من الأطفال على بوابة رام الله ويقول: ما أجملك.. أيها الهارب من اللقب.

حسين البرغوثي.. وداعاً
رسمي أبو علي

كان صوت شقيقي المقيم في رام الله حزيناً عندما اتصل بي صباح الأربعاء الماضي، فهبط قلبي، تُرى أي خبر مشؤوم يحمله؟ هل أصيب ابني أو اعتقل، أم هل ألمَّ مكروه بشقيقتي المقيمة هناك، أيضاً.
– لديك أخبار سيئة، قلت لشقيقي بسرعة ولهفة، فأجاب: وكيف عرفت؟ قلت من صوتك هل مات أحد من الأسرة؟
– أجاب بحزن: لا ليس من الأسرة – ولكن حسين أعطاك عمره.
– حسين البرغوثي مات!
أجاب: فجر هذا اليوم في مستشفى رام الله.

وقد بقينا إلى جواره حتى أسلم الروح.
وفي لحظاته الأخيرة بدا كعصفور يرتجف وهو يحاول أن يضخّ بعض الأوكسجين إلى رئتيه، ولكنه لم يستطع المقاومة أكثر من ذلك.
وقبل أن يموت بلحظات قال لي: سلّم لي على رسمي كثيراً.
كان الخبر صادماً رغم أنه كان متوقعاً، فحسين البرغوثي الشاعر والكاتب والأستاذ الجامعي في جامعة بيرزيت كان مريضاً بالداء الخبيث قبل أكثر من سنتين، ولكنه استطاع مقاومة المرض والالتفاف عليه عبر بحثه في شبكة الإنترنت ولجوئه، بعد ذلك، إلى علاج نفسه بالأعشاب، وبدا أنه سيستطيع تأخير النهاية بضع سنوات على الأقل، ولكن الأحداث العاصفة الدامية التي حلّت بشعب فلسطين أثّرت على علاجه الذي كان يجب أن يكون منتظماً عبر المستشفى.
وقد روى بحزن كيف أنه كان يذهب إلى المستشفى ليراجع وهو محرج على حين كان هناك العديد من الإصابات القاتلة التي لم تكن تتحمّل أي تأخير.
إضافة إلى أن الطريق كانت مقطوعة بحواجز جيش الاحتلال الإسرائيلي بين قريته كوبر، إحدى قرى محافظة رام الله، وبين مراكز العلاج، الأمر الذي أبقاه في بيته دون علاج خلال الشهر الماضي كلّه.
وأكثر من ذلك، كان قد طلب من صديقنا نجوان درويش، المقيم في عمّان، أن يرسل له نوعاً من الحقن المتوفرة في بيروت، وبالفعل استطاع نجوان تأمينها إلى عمّان حيث طار بها وهي مغمورة بالثلج إلى الجسر الفاصل بين الأردن وفلسطين، آملاً أن يتمكّن من إدخالها عبر أحد الذاهبين إلى رام الله في ذلك اليوم، ولكن جيش الاحتلال الإسرائيلي رفض إدخالها رغم أنه حاول إفهامهم بأن حياة إنسان تتوقّف عليها، ولمّا روى لي نجوان ما حدث أضاف بحسرة: لو قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي إدخالها، لكان من الممكن أن تمدّ في عمر حسين شهراً ثميناً، وبعدها كان من الممكن أن يتدبّر أمره بمزيد من العلاج بعد أن تكون الأحداث في رام الله قد هدأت بعض الشيء، ولكن!!
حسين البرغوثي الذي عرفته منذ سنتين فقط، حيث جلسنا في احد مقاهي رام الله ليأخذنا الحديث ساعات طويلة حتى جاء المساء وهنا اقترح حسين أن أذهب معه إلى قريته كوبر لنستأنف الحديث، فذهبنا معاً وكانت معنا زوجته الشابة وابنه الذي سماه اسماً غير مألوف هو «آثر».
وقد لاحظت عمق الصلة التي تربطه بزوجته وابنه، صلة إنسانية تقوم على الديمقراطية الكاملة حيث كان ابنه يناكفه ويناديه بـ «حسين» على حين كان حسين يضحك.
وعندما وصلنا كوبر ذكّرتني على الفور بقريتنا «المالحة» التي احتلها الصهاينة العام 48، وذكرتني والدته الفلاحة بأمي وخالتي، وأحسست في تلك الليلة في كوبر أنني أعود خمسين سنة إلى الوراء، وأنني بدأت أشم رائحة البلاد التي فقدناها منذ خمسين عاماً.
واستمر حوارنا في تلك الليلة، وكان يريد أن يعرف مني المزيد عن مرحلة بيروت التي عشتها كاملة على حين كان هو في الولايات المتحدة يعد رسالة الدكتوراة، وعن حياته في أميركا نشر في السنة الأخيرة

نوعاً من سيرة ذاتية جوانية بعنوان «الضوء الأزرق» اعتبرها بعض النقاد تأسيساً جريئاً لكتابه السيرة الذاتية الجوانية الصادقة.

كما استكمل سيرته الذاتية عبر مقالين نشرا في مجلة الكرمل الفلسطينية تحت عنوان «سأكون بين اللوز» عكست عمق جذوره امتداداً إلى أجداد الأجداد بالأرض، متسائلاً بسخرية عما يعرفه ذلك المستوطن الوافد المطل من رأس إحدى التلال المحيطة بكوبر، وعما يربطه بالأرض وعن ذاكرتها وحكاياتها الأسطورية.

وكان حسين أصدر مجموعة شعرية حملت عنواناً غريباً بعض الشيء «توجد ألفاظ أوحش من هذه»، بالإضافة إلى عمله كأستاذ للأدب الإنجليزي في جامعة بيرزيت.

وكل من عرف حسين أدرك أنه أمام إنسان موهوب ألمعي متعدد المواهب، إضافة إلى مناقبه الشخصية كتواضعه الجم غير المألوف وهو حامل الدكتوراه التي تغري الظهور بمظهر آخر.

عرفت «حسين» لمدة سنتين فقط، قابلته ثلاث أو أربع مرات بحوارات طويلة معمقة، وعرفت أنني عثرت على توأم للروح والعقل والسلوك.

وكان وجود حسين في رام الله يشكل دافعاً قوياً للذهاب إليها من عمان بين حين وآخر كنت أعرف أن «حسين» هناك وأنني سأحظى معه بموائد حوار غنية لا تنسى.

واليوم وسط هذا الحزن العام الذي يلفّ فلسطين والعالم العربي على ضحايا فلسطين النازفة، يضاف إلينا حزن خاص على حسين البرغوثي الذي لا يعوّض.

وداعاً حسين .. وداعاً أيّها الصديق الحبيب الشهيد، أما رام الله وكوبر وبيت الشعر الفلسطيني فسوف تزداد حزناً ووحشة بغيابك.

حديقة الموت، حديقة المعرفة
زياد خداش

(1)

في مراهقتي الساخنة تعثر ذهني الشريد بـ «سقوط الجدار السابع»، ما زلت أذكر تفاصيل ذلك المساء الشتوي البعيد، نائماً على ظهري والكتاب فوق وجهي ممسكاً به بيديّ الإثنتين. وحدي في البيت، وحدي في هذا العالم. كنت آنذاك ذاكرة منحدر بائس وذهن شارد منقرض، كان لديّ شعور قويّ بأنني كائن مفروض على هذا العالم، زائد عن الحاجة، وأن كلّ شيء حولي يتساءل بفزع: لماذا أنا هنا؟ «سقوط الجدار السابع»، أنهض روحي الكسيحة وفجّر شلالي المنقرض ورمم خرائب ذهني وزرع في صحرائي شجرتين كبيرتين: الأولى شجرة المعرفة، والثانية شجرة الإيمان بالطاقة الداخلية للإنسان، ما دام الخارج عدوي المتربص بوجودي وحواسي، فلأهرب نحو الداخل حيث حقيقتي وسلامي وشرعيتي كان «سقوط

الجدار السابع» بوابة دخولي هذا العالم الصافي الصديق، بعد ذلك لم تعد حروب الخارج تهمني (حروب المدرسة والأهل والدين)، بحثت عن كل كتب حسين البرغوثي في كلّ مكان وكان كلّ حرف أقرأه فيها يساهم في قلب السؤال إلى ضدّه، «لماذا أنا هنا» أصبح «لماذا هم هنا»؟ منذ تعرّفت إلى عالم حسين الفنّي لازمني شعور حاد بأن هذا الرجل الذي اسمه حسين جميل البرغوثي هو شخصية غرائبية قد لا تكون حقيقية، هو وهم ذكي فرضته عزلتي وهامشيتي، أو هو حلم ما زلت أحلمه في اليقظة والمنام لأعوّض به عن أنقاض حضوري الهشّ في هذا العالم المتوحّش، أو هو طيف لشخص ما التقيته في حياة سابقة لا أتذكّر تفاصيلها.

ظلّ حسين مرتبطاً عندي حتى اللحظة بعالم شبحي غامض، أو رؤى ما ورائية مخيفة ولذيذة في آن، عندما تعرّفت إلى حسين شكلاً، ومن بعيد، تعمّق عندها هذا الإحساس فهذا الرجل لا يمشي على الأرض مثلنا، إنه يطير فوقها واقفاً كأنه يمشي أو مدعياً أنه يمشي.

كان يبدو كأنّه يخوض في متاهة ثلج تراكم فجأة فوق الأرض ودمّر معالم الطرقات ومنحنيات المدنية، ما زال المشهد ماثلاً في ذهني.

كنت أركب سيارة أجرة عائداً من رام الله إلى المخيم، هناك على رصيف الحرش الصغير القريب من قصر الوردة الحمراء، كان حسين يمشي، أقصد يطير واقفاً، وعيناه على الأرض كأنه يتحاشى حفرة أو نتوءاً ما، كان برفقة شاب آخر عرفت لاحقاً أنه إبراهيم المزين، توأم انشقاقه ورفيق دربه المجنون. لم يستغرق المشهد أكثر من ثلاثين ثانية، لكنه انحفر في أعماقي كما ينحفر تمثال في صدر صخرة، كنت كلّما قرأت نصّاً لحسين، أرى «حسين» يطير إلى وسط المدينة ببطء غامضاً واقفاً كأنه يمشي على أرض وهمية أو طبقة أخرى من الأرض غير مرئية بالنسبة لنا، لكنه يراها أو يعرفها.

(2)

نص حسين الأخير

لم تكن «قصص من زمن وثني» هي آخر ما كتب حسين، كما يعتقد الجميع، النصّ الأخير الذي كتبه حسين وأربك أذهاننا به هو زيارته الأخيرة للدير الجواني، زيارته ميتاً ومسجّى في عربة إسعاف، رجل لا يكف عن إدهاشنا حتى وهو ميت. ميت!! ماذا تعني هذه الكلمة؟ فحسين لم يمت، فطالما هناك لوز ينوّر في بلادنا فحسين موجود، حسين شجرة لوز تستريح قليلاً من إرهاق النور وتعب البهاء، وضراوة الأناقة، حسين موجود، موجود، موجود.

(3)

يدير ظهره لنا ويغطس في الشمس.

في حديقة مستشفى الأمير زايد، كنّا نجلس مع حسين، مهيب وأنا يومياً لعدّة ساعات تحت الشمس الدافئة، كان حسين يأتي يومياً لأخذ إبرة، كان بعدها يستريح في الحديقة على حجر بالقرب من المكان

الذي سيتحوّل بعد عدّة أشهر إلى مقبرة جماعية لشهداء فلسطينيين سقطوا في رام الله. يدير لنا حسين ظهره ويغطس في الشمس مغمضاً عينيه، بينما نتمشّى نحن في الحديقة، نلهو بركل الأشياء من مخلّفات البناء من خشب وحديد وأعشاب. يذهب مهيب ليحضر الحمّص، حسين كان يحبّه من مطعم في رام الله القديمة. كنّا نأكل بنهم ونتمدد بعدها على أسفلت الحديقة تماماً فوق المكان الذي سيصير مقبرة جماعية، نحكي عن الشعر والموسيقى والله والوطن، ومرّة أخرى حسين يتركنا متمددين على الأرض ويدير لنا ظهره ويغطس في الشمس، هذه المرّة كانت عيناه مفتوحتين.

(4)

ولد ليشتبك مع الجاهز

كان حسين عدوّاً للقديم والمتيّبس من الأفكار والأسئلة، وكان دائماً يقول لي: عندما تعرف أنك تعرف فأنت لا تعرف شيئاً، وعندما تعرف أنك لا تعرف فأنت تعرف. علّمني حسين أن أشكك بالنظرية والأفكار التي أومن بها. ومرّة قال لي بحضور وسيم الكردي دائماً، كنّا نعتقد نحن الأدباء أن العالم خطأ ونحن الصح، لماذا لا يكون العكس، قد أكون أنا الخطأ والعالم صواب.

(5)

هل الجمالي يحدّ من الرؤية؟

قبل أربعة أيام من رحيله، كان حسين لا يكفّ عن الأسئلة والتفكير بالشعر ونظرياته. قال لي إن من الأسئلة الكثيرة التي لم يجد إجابة عليها حتى الآن هو: هل الجمالي في الشعر يحدّ من الرؤية؟ وتابع حسين: طرحت السؤال على درويش، ففكّر طويلاً (مبدياً دهشة من هذا السؤال المهم) قبل أن يقول : هذا سؤال صعب وإشكالي ويغري بإجابة سهلة، لكنني في الحقيقة لا أدري. أمهلني أياماً لأفكّر.

(6)

تعال خذني أيها الموت

كنت أجلس مع حسين وحدي في غرفة بالمستشفى قبل الرحيل بأيام قليلة. لم أكن أفعل شيئاً سوى التحديق بوجهه، وعندما كانت تلتقي نظراتي مع نظرته، كنت أهرب بعيني بعيداً، بينما يرقّص بوهن شبح ابتسامةً على شفتيه. في لحظة من اللحظات.

انتاب حسين إحساس بالضيق، فسحب نفساً عميقاً وسدد نظرة غريبة على نافذة الغرفة العالية صائحاً: تعال خذني إني بانتظارك، أنا، أيضاً، متشوق لرؤياك.

(7)

عبقرية المتاهة

لم ينشغل حسين بحروب المثقفين الصغيرة، أخلص للنص. صديقاً كان للأفكار البريّة الهاربة من ترهّل المشهد وسطحيته. كان مولعاً بالمتروك، عاشقاً للمعرفة، بحث دائماً عمّا يضيف له أبعاداً جديدة واحتمالات أخرى للحياة. ونظلمه حين نقول مستائين «لم ينتبه إليه أحد» أو «كان مظلوماً من النقاد» لأنه ببساطة، لا أحد هناك ولا نقاد عندنا بمستوى عمق وتوهّج فكرته عنّا وعن العالم. ولو حصل وكتب عنه أحد هؤلاء لأساء له ذلك ولنا وللمعرفة.

لم يشتغل حسين بالسياسة مع أن الوطن حاضر في نصوصه، ولكن بطريقة مختلفة هي طريقته وحده، نسيج وحده.

في كل كتاباته الشعرية والنقدية والروائية «دراسات في الشعر المحلي»، «سقوط الجدار السابع»، «رؤيا»، «الضفة الثالثة للنهر»، «ليلة وتوبة»، «توجد ألفاظ أوحش من هذه»، «حجر الورد»، «مرايا سائلة»، «الضوء الأزرق»، «قصص من زمن وثني»، «سأكون بين اللوز»، كانت ثقافة السؤال .. وقدسية الاختلاف حسّه العالي بالتفاصيل غير المرئية. كان اللهاث النبوئي خلف سرّ «الضوء الأزرق»، كان ذكاء المزج بين اغترابه الشخصي واغتراب وطنه واغتراب العالم.

نحن لا نستطيع أن نجزم من الذي يتألم في نصوصه: حسين أم فلسطين أم العالم، أهي عبقرية متاهته أم متاهة عبقريته، حسين البرغوثي، هنيئاً لنا بك.

حسين على يساري والشهداء على يميني ..

مساء اليوم التالي لرحيل حسين، جرّتني قدماي نحو حديقة المستشفى، فلقدمي ذاكرة، أيضاً، كان حسين يجلس على حجر كعادته صباح كل يوم، كتمثال بوذي، بمعطفه الطويل وطاقيته الصوفية، مديراً ظهره للعالم، عند قدميه بقايا حمص في صحن بلاستيكي، صفحات من جريدة قديمة تترنّح في الريح، خلفه كانت مقبرة الشهداء المؤقتة، يحيط بها أناس يبكون بصمت، الشهداء على يميني وحسين على يساري وأنا في الوسط لا أدري ماذا أفعل، أأذهب إلى حسين لأقول له بماذا تفكّر يا صديقي؟ أم أذهب إلى الشهداء لأقول لهم: تصبحون على وطن: تسحبني قدماي إلى خارج الحديقة أمشي في شارع المستشفى، لماذا أحسّني روحاً معطوبة، وقلباً كسيراً، وذاكرة أضاعت ذاكرتها؟ بهدوء أسير تجاه وسط المدينة، حسين بداخلي يجلس على حجر، بنظرته البرونزية، ومقبرة شهداء صيغت على عجل بحزن فوضوي، أحسّ بعيني تغطسان في بحيرة دموع، وعندما يسألني صديق يمرّ عنّي في الطريق لماذا تبكي؟ يحيرني سؤاله، فأنا لا أعرف أأبكي رحيل حسين أم أبكي شهداء الصدفة الجميلين!!

طوبى لمن "وراء السياج"
عبد الرحيم الشيخ

أخي حسين، بوجودك نحن بخير. بوجودك، أنتَ، بخير.. هناك، «وراء السياج» الذي لم نصله.
كتبتُ قصيدة قبل ثلاث سنين لأحباء كانوا في البعيد عارفاً بأنه قد تأخَّر ذاك البريد .. تأخَّر .. تأخَّر الوصول الذي فيه، تأخَّر هو، تأخَّرتُ أنا، وهم لم يعودوا. لا أعرف إن كان بريدي إليك سيكون أكثر تأخُّراً، إنه «الوهم» الذي أرَّقك كثيراً في المكان الذي لم يكن عندك إلا «مجمَّع أوهام عن أمكنة أخرى» .. الوهم ذاته، يالعزيز، أيقنني بوصول بريدي في زمانٍ صحيحٍ أكيدٍ إليك، زمان لا يعرف ساكنوهُ الجغرافيا إلا بوصفها وَهْمَاً، ولا يتذهَّنونَ العالَم إلا خالياً من المكان. هل تخيلتَ العالمَ بلا مكان، يوماً، يا حسين؟ ألستَ فلسطينياً ترى أثيرية الوطن، تجرُّداً أو عياناً، منحازةً إلى جغرافيا فككها خلود الزمان؟ ألم تُعَلِّم حواريك عشقَ (رامبو) ليكون بينه، في الأمس، وبينهم، في اليوم، أكثر من قربى؟ ألم يصل بريدُك قبل كل بريدٍ يقولُ العلاقةَ بين أوهام رامبو الصغيرة وأوهامنا، يقولها جلاءَ طريقٍ إلى اليقين اللايعرف جغرافيا؟ لا أقود أوركسترا بلا نوتتها، هنا يا رفيق دربنا،بل أحاور فيكَ المسافةَ التي إليكَ ... أحاولها.
أخي حسين، بوجودك نحن بخير. بوجودك، أنتَ تماماً، أنتَ بخير .. هناك، «وراء السياج» الذي لم نصله.
نعلم أننا لن نرى عيناً ترانا في تعيُّننا وتعيَّنها، لكننا ندرك أنها ترى، من البعيد، توقنا للرؤيا، وترى الآن، من بَعدها، مَنْ «يحرسون الكلام من الخلخلة» .. فها بَعدك الآن مَنْ يحيلون رماد العيون إلى مراياك، سائلةً، فـ«بعض العيون مرايا، وبعض العيون غبارُ»، تقول «مراياك». نعرف أن الزمان لم يكن لنا، ولم يكن علينا تماماً في شهور مضت، ولربما نعرف أكثر مما عرف درويش، فلم يحالفنا الزمان مرة لنطمح بالمرتين ... ولكننا نعرف أن الزمان حالفنا بك لنعرف مَنْ نحن؟ ومَنْ هم؟ حتى في أحلك الليل الذي غادرت فيه، بالتفاصيل كلها أو بلاها، إلى مكانك/«الآن»، نعرف أننا باقون، مثلك، هنا.
لسنا بحاجة إلى تأويلات (يونج)، التي أرهقتك كثيراً لتوصلِها، لنعرف أن عجزنا عن تأويل أحلامنا بالنصر لا يعني اهتزاز الوضوح فيها، بل يعني عدم الإمكان في اكتشاف «واجهة أحلامنا» التي هي خيط واقعنا المنطقي والتراجيدي الذي يحاول الحفاظ على رابط المعقولات التي ترد في حلمنا، وصيانتها من عفونة الخلق العالمي الذي أتاح للغطرسة الإسرائيلية حشر مربعها الجرائمي، الذي تبسطه سماءً على الأرض الفلسطينية وما فيها من بشر وشجر وحجر، في دائرة الدفاع عن النفس، وعن شرف المعنى في «الديمقراطية الوحيدة في غابة الشرق الأوسط». لفهم هذا الحشر، لا نحتاج تأويلات يونج، ولا نحتاج منطق خياله لفهم البرادوكسات التشاركية التي تنتجها البروبوغاندا الإسرائيلية، وتروجها دماغوغيا الإعلام الأمريكي التي تتهم كل من يحكم على دمنا بالحمرة بالانحياز والتواطؤ واللاسامية والطعن في ذاكرة الهولوكوست ... بل نحتاج إعادة إنتاج اليقين بصدقية واجهة أحلامنا.
تعلمنا العقلانية الكانطية، كما درَّسْتَها هناك في بيرزيت، أن الأسطورة كانت سبباً في ظهور اللغة، وإنما

ظهرت اللغة وتاريخيتها الجمالية للحفاظ على الأسطورة. بمعنى أن الأسطورة هي اللغة البدئية التي كان الوجود البشري قد أنتجها، خيالاً، نتيجة لافتقاره إلى اللغة التي يعبر بها، عقلاً، عن تجربته مع الحياة والطبيعة وماورائهما. أنتجها الإنسان في خداجه المعرفة، ونحتها على صخور أقل صلابة من أدمغة الحافرين المحتفلين بمجهولية الطقس لا بمعقولية الداعي إليه. والإسرائيليون اليوم، يا رفيق دربنا، يعيدون تاريخ المعرفة إلى خداجته الأولى، إعادة بالنار والحديد لا بالنحت الاختياري لهدف تخليد الطقس الذي أسعف أصحابه من ضرورة اختراع اللغة. يمكن للإسرائيليين، اليوم، وغداً إن أرادوا، أن يخترعوا لغتهم الخاصة، لغة الإرهاب الذي تروجه آلة الديماغوغيا المانوية التي تقسم العالم إلى خير وشر مطلقين كقسمة (بن لادن) الضيزى، أو أضل سبيلا .. ولكن الأجدى للإسرائيليين أن يعيدوا اختراع «ملاذ» الأسطورة لمجانبة اختراع لغة تقنع العقل.

لا تحتاج الأسطورة إلا إلى ذاتها وأحرفها الشوهاء لتدخل حيز البث، أما اللغة فتحتاج أدوات الحوار التي يفتقدها اللسان العبري الهجين. فالعقلية الإسرائيلية «تُشَقْلِبُ» تاريخ فلسفة الخطاب، وتعدم كاسيرر ولانجر وستراوس، حين «تنجز» مغالطتها الكبرى من خلال استبدال التحول الرمزي للغة بالتحول المرموزي للأسطورة في خطوة أولى، وأسطرة التاريخ بكليته في الخطوة التالية! .. ونكتفي نحن، نعم، نكتفي، بالمعرفة، وأحلام صغيرة بالوصول، ويقين كبير بالحقيقة. وتكتفي أنت بما أنجزتَ من معرفة، وحلم، وانتظارٍ لتجاوزِ السياج، وتصعدُ، عسيراً، إلى ما بين لوزك.

أخي حسين، بوجودك نحن بخير. بوجودك، أنتَ، بخير .. هناك، «وراء السياج» الذي لم نصله.

أعلم أنهم هناك، يطاردون نوايانا، ويحكمون علينا بالفناء لأنهم اكتشفوا أن «شفرة التوارة» تؤكد القرابة بين الفلسطينيين و«العماليق» ... يعودون إلى نسقية الفكر النباتي هؤلاء العابرون، يغلقون نوافذنا ونوافذ العالم التي علينا ليهزموا «لاسامية الكاميرا!»، يقتلون الجميع، ويخفونهم في الغياب، ليعم «السلام النهائي» على هذه الأرض، ولتمت «بهائم كافكا بسلام»، فهي غير قادرة على الإحساس بالجغرافيا. إنهم يقرأون روسّو، أحياناً، ويأوِّلونه بأكثر مما يجب. إنهم يعرفون أنه، في «إميل»، لا يرى فرقاً بين الطفل والبالغ إلا بالتعبير عن «هاجس الجغرافيا» .. فالأول لا يعرف أن الجنة في مسقط الرأس وأن النار خارجه، لكن الثاني يرفع مسقط الرأس ليصبح الجنة ويجعل النار خارجه ... الأول لا يجعل من عِرْقِـهِ فيصلاً ولا من ديانته مسطرةً، والثاني يلقي الخطيئة على أهل روما لأنهم لم يولدوا في مكة! وبذا، فالشر الإسرائيلي، يا صاحبي، ليس شراً قيمياً قياساً إلى قيمية الخير الأليف، بل هو شر غارق في دعم «الإيجاب» الفلسفي للوجود الإسرائيلي الكياني، والكينوني، على أرض اللامعنى، أي، هو شرٌّ لدعم «إيجاب» اللامعنى.

تلاحظ ذلك، مثلاً، هناك وهنا، فالإعلان عن «الخسارة» الإسرائيلية له السبق على كل خسارة فلسطينية، ولا وجود للفلسطيني في خارطة الضحية، ولا وجود له حتى في خارطة الجلاد القابلة للشرعنة .. هو حالٌّ، بالضرورة المنطقية، في دائرة اللعنة أو الشيطنة التي لا مبرر لوجودها لا تجريداً ولا تعييناً. لا أظن

أن شيئاً غريباً يداهم هذه المسألة، فالأسطورة الآدمية، عندما تنغلق في تيارها الهابط عجزاً عن إدراك كل ماهية تجاورها أو تشاكلها فإنها تنفتح إلى «أعلى»، تنفتح نحو المطلق الأسطوري الذي يشكل مرجعية الإفحام، نحو أفق الثيولوجيا المنتجة لمطلقاتها والمنتجة لخارطة العبوديات الملحقة بهذه المطلقات. وفي الحالتين فإن سمة الاحتكار تطفو على السطح ليحتكر منتجو الأسطورةِ مطلقاتها وخرائطَ العبودية التي أنتجتها في آن ... لكن شهداءنا بعودتهم إلى الأرض، وإخصابها، إنما يمارسون إنتماءهم الخاص هناك، بلا مؤتمرات صحافية ولا تغطية محايدة أو ضدية أو بينَ بين.

أخي حسين، بوجودك نحن بخير. بوجودك، أنتَ، بخير .. هناك، «وراء السياج» الذي لم نصله.

بعد أن جادلني في الشهر الأخير صاحب في أنطولوجيا العبث، وكتابات ميرسيا إلياد، و «إلى أين يذهب الشهداء؟» بعد الملصق والتأبين، أو بلاهما، حين يُدَسُّون في بيوتهم الأخرى، فُرادى أو زُرافات، بعد خمسة عشر يوماً في الانتظار (كم أصبحت المدافن بيروقراطية في هذا الزمان يا صاحبي!)، وبعد أن أثقلنا الآخر، الضروري، بهاجس الموت وواقعه، وإلى آخره ... حِرتُ في الموت ياصاحبي. سألتُ: ما الموت؟ أَوِلادةٌ أخرى بالطقس؟ أم هو الطقس الذي يفرض حضور الولادة بفعل القداسة: ثقلاً، وهاجساً، وسلطةً لا تزول ولا تدول؟ تقتُ إلى معرفة جغرافيا الموت حين عرفت أنه لا تنعدم الانطولوجيا بوقوعه، بل تغيِّر حالاتها، وتنفصم هوية اعتيادها: فترجع عايناً جسدياً إلى عيان الأرض (من تراب أتت، وإلى ترابٍ تعود)، وتصَّاعد تجريداً روحياً إلى أثير السماء (فهي لها، وإليها الرجوع) ... وتبقى هناك، هذه الروح، تطل من نافذة العدم على الذاكرة، أو تبقى، هنا، فينا تجوهراً لا يمسه العدم بسوء، وعدماً لا يبلغ للوجود سبيلا، واشتراكٌ بين الحالتين ينثر ملحه، أسودَ صارماً، في عين المعقول القابع خارج التعيين !

فهل تعيُّن المعقول ضرورة يا صاحبي؟ «لا» .. لا بأس، إذن، إن لم يكن في الإمكان تعيُّن المعقول، لكنَّ تعيينه يبقى ضرورةً، فسيد المعقولات كلها مخارجٌ للتعيُّن، ولكن تعيينه حاصل دائماً! ولكن، هل تتساكن الأضداد، أو هل يمكنها حتى أن تتحايث، ليكون الموتُ إمكانيةَ وجودِنا الكبرى؟ هل كان أفلاطون مخطئاً حين جعل الموت خُلقاً استعلائياً عابراً لنماذج المرذول من حياة البشر على أرضهم المرذولة؟ أم هل كان غيره مصيباً بتوصيف ظاهرة الانتباه بأن لا تحصُّل لها إلا بالموت، ولا بزوغ لفجرها وانفجارها إلا بعد تحققه، ولا اكتمال للكائن إلا بموته؟ هل كان هايدغر محايداً حين أغرقنا، سلواناً، بتجاوز الوجود والعدم حيناً، وحيناً بانبثاق الأول من الآخر؟ ما الموت، إذن؟ هل له جغرافيا؟ هل له زمان؟ هل يترمَّد فيهما؟ أم أنهما يترمدان فيه حين يصبح هو مُنْتِجُ جغرافياه وزمانه وما بهما من فرادة مفترضة؟ هل للموت جهات غير الصعود؟ هل هو أثيري أبيض يخارج السطح والبعد الثالث؟ هل هو البعد الرابع الذي فيه تتوازى الهويات وتندغم الذوات بصفاتها؟ هل هو اللامعقول بامتياز؟ أم هو «لعبة المتاهة» في تجربة ديفير، والخروج منها في تجربة الغنوص، وصناعتها في تجربة العقل؟ هل يشترك الراحلون في الوظيفة الروحية للموت؟ هل يستبدلون نمط الأنطولوجيا بتحرير المعنى من لامعناه؟ هل للموت خيريَّته الخاصة؟ أم هو عبث الماوراء الضحل الذي يتم عبوره بالملاء الخالص إلى ما «وراء السياج» ..احترت يا أخي حسينُ،و «احتار الدليلُ» كيف أخلِّصُ فتنة الرمز في حضور الموت من هجاء الانخطاف الذي يعقبه ... زرتُهُ (قبل أن

يزورني!)، زرته زيارةَ البسطامي للبيتِ وصاحبِهِ ثلاثاً: فرأيت مكانه في الأولى ولم أره، ورأيته في الثانية بلا المكان، وفي الثالثة اختفيا معاً! هل تظنُ ذاك هو عينُ الوصول الذي بلغه النفَّري حين وقع في الظلمة فلم يَرَ شيئاً، وأبصر نفسه..فوصل؟ أمِنْ «حقائقَ» أخرى وراءَ السياج؟

أخي حسين، بوجودك نحن بخير، بوجودك، أنتَ تماماً، أنتَ بخير..هناك، «وراءَ السياج» الذي لم نصله. تعبتُ من معاينة الموت، خجلتُ من قراءة الفلسفة، تراجعتُ عن العودة، وعدت إلى تأمل حزنك الثقيل على الذات التي لا «تحرر مكبوتاتها»، ولا «تطرد أشباحها» بالكتابة، بل تعرض ذاتها هي كـ«وجود شبحي» على هذا الأرض تتنازعه أرواح الفواعل الأخرى..تأمَّلْتُكَ،على حائطي وفيَّ،وذكَّرني صاحبي أن الخامس من أيار يوم مولدك، فكتبتُ شعراً: كتبتُ عنك، عن المدينة، عن النساء، عن الله، عن قلبي، عن حيرة الدليل، عن تَأْكِيْدَاً، كتبتُ، وليلى.. وكتبت عن سريري، آخر ما كتبتُ كان عن سريري، فأقرأ كما تريد، وأكتب ما تريد، وزرْ حين تريد .. فكليَّ شوقٌ إليك.

«هذا سريريَ
مستفيقٌ منذُ مولدهِ على نوميْ
لا شيءَ يسكُنُهُ سوى وردٍ وغيبٍ لا يجفْ
هوَ مركبٌ للـلا عبورِ .. هوَ العبورُ، يقولُ رَعْ:
من هنا تبدأ .من هنا تنتهي. من هنا تمرُّ. هـهنا تقفْ.
هذا سريريَ
حولَهُ تنمو المسافةُ كي تُخارِجَني
أفاجِعُها بصمتٍ دائريٍّ كي تفاجئني ببعضِ حوافِها
لاشيءَ يعبرُها سوى ظلِّ الغواياتِ القديمةْ
لا قديمَ يضيئها، أبدا، سوايْ
هذا سريريَ
مرِّ النهارُ عليهِ في يومي مِراراً
مرَّ ليليْ، مرَّت الأضواءُ خافتةً، ومرَّت فيهِ إمرأةٌ، نساءٌ
لم تنل من سرِّهِ ما نالَ منها
مرَّ سرِّيَّ، فيهِ، مرَّ، ولم يرهْ».

5 أيار 2002

ستكون بين اللوز
عصام سعدي

ذات مقهى .. ومنذ شتاء .. ودون موعد، وعلى قدر رنّ هاتفي المحمول ..
- تعال إلى الفاروقي، معي حسين البرغوثي ..
كأنّي أعرفه منذ زمن طويل، قلت له: هل تقابلنا قبل اليوم.. قال ربما؟! على كل حال نحن الفلسطينيون نحسُّ أننا نعرف بعضنا بعضاً، المنافي نفسها، البساطير نفسها .. والخوازيق، أيضاً ..
تحدثنا في كلّ شيء .. الانتفاضة، الفنّ، الجمال، صدمني حين قال: «أخشى أن لا يخرج من بيننا روائي واحد مهم .. الرواية بحاجة إلى مدينة .. إلى استقراء ودخول في التفاصيل .. بحاجة إلى وقت .. أخذوا مدننا؛ حيفا، يافا، عكا .. بقية المدن تحوّلت إلى مخيمات .. خذ أي فلسطيني واكتب عنه رواية .. بعد كلّ التفاصيل ستقول ولد في المخيم، عاش في المخيم، مات في المخيم، .. إسمع: إحنا قصيدة نعم، قصة قصيرة ماشي الحال .. رواية لأ .. الذين كتبوا رواية هم الذين تنقلوا في العواصم .. وهؤلاء إما ماتوا في العواصم .. أو عادوا ليموتوا في المخيم .. خلص».
في ساعتين حدثنا عن قصيدة النثر وأزمة الحداثة، عن بناء الصورة في القصيدة وأزمة الخيال لدى الشعراء، عن بناء الكتلة في العمل التشكيلي ..، عن الأسئلة والقلق، والإجابة بسؤال .. عن مركز خليل السكاكيني وعن السخرية المتوارثة في آل البرغوثي .. في ساعتين أضحكنا .. وأرجعنا ..
بعد منتصف الليل وقفنا في ساحة مجمع النقابات لمشاهدة «جدارية الانتباه»، أحسسنا أنه مقهور .. أحببنا أن نواسيه.. قلنا له: إن هذه الجدارية تريد أن تقول إننا هنا منتبهون لما يجري لكم هناك .. بمرارة قال: «طيب، بس اتغطوا مليح وناموا، لما تنتبهوا بنكون خلصنا .. بدل الجدارية بيطلعلنا شاهد مقبرة».
تواعدنا أن نلتقي مرة ثانية .. وسافر، ودخلنا جميعاً في طقوس «شارون»؛ حصار .. حصار.. حصار.. مشهد واحد ممتد منذ شهور، وكلما سألنا عن حسين قالوا: «تعبان بس عايش».
كثيرة هي الأسئلة التي كنت أنوي أن أقلقك بها في لقائنا القادم .. من المدهش مراقبتك وأنت تخرج من حصار الأسئلة... قلت، لجهاد، صاحبك، لديه تكنيك عالٍ في الخروج من المصائد .. وفي الخروج من المصائب، أيضاً، أضاف جهاد.
هل نقول شكراً لتلك الجريدة ولرسمي أبو علي الذي جعلنا نتخيّل غيابك .. والذي أعطاك فرصة لتسخر من ردود فعلنا ..
بعد الذي حصل في مخيم جنين وحيّ الياسمينة، أتذكّر كلامك عن الرواية .. وأسأل هل سنفقد المخيم، أيضاً، «ولد الفلسطيني وعاش ومات» .. هكذا بلا أم ولا أب ولا مكان، فقط بفن الخروج من المصائد والمصائب. هل هذه هي روايتنا الآن؟ على أي حال أنا سعيد لشيء واحد .. أن جسدك وجد قبراً في فلسطين .. ويا للبذخ، لقد دفنت في قبر لك وحدك، لم يشاركك به أحد، وكانت هناك جنازة ومشيعون

وعزاء .. كم سيغضب «شارون» من هذه الامتيازات التي احتفظت بها .. أما أنت فستقول: «خلّي شارون ينسطح، بدّي أمدّد رجلي .. قبري وأنا حرّ فيه».
لكثرة ما فقدنا من أصدقاء، وقبل أن ألتقيك، كنت قد طوّرت لنفسي طريقة في النسيان.. أنت الآن تربك طريقتي .. فما زلت أظنّ أن الحصار سينتهي، وأنك «تعبان بس عايش»، وأن طاولة في الفاروقي ما زالت قادرة على تحمل كل ما في رؤوسنا من عقل .. أو قلّة عقل.
هل كان لا بد أن ألتقيك .. لتلقي في قلبي حجراً .. وإذا التقينا، هل كان لا بد أن تكون ساحراً إلى ذلك الحدّ الذي لا ينسى؟
أعرف أنني سألتقيك، ربما ذات رصاصة .. أو سكتة قلبية .. أو كتاب..
وأعرف أنني لن أغفر لجهاد هديب تذكّره لرقم هاتفي المحمول قبل شتاء وذات مقهى ..
أخي حسين: آخر سؤال أطرحه عليك: هل تظنّ أن الفلسطيني ابن المخيم قادر على كتابة الرواية بعد الذي حصل في مخيم جنين .. ستسخر منّي ومن سؤالي، وستقول: «يا أخي افهم، هناك فرق بين الرواية والأسطورة» ..
حسين البرغوثي .. وداعاً.. ستكون بين اللوز.

حسين جميل، ذاكرة مباحة بوعي، للآخرين
مازن سعادة

لم أقابل في فلسطين كاتباً أباح تفاصيل روحه وحياته بوعي للآخرين كما هو حسين جميل. ليس فقط، في نصوصه الثلاث، الضفة الثالثة لنهر الأردن، ضوء أزرق، وبين اللوز، وإنما، أيضاً في بوحه العادي، وفي نظراته الشاردة، وتجليات قلقه اليومي. ثلاثة نصوص أباح لنا فيها حسين ما نعرفه عنه وما لا نعرفه، كما لو أنه يقول لنا: ها أنا، ما كنت، وما أحب أن أكون.
حسين غير ما اعتاد عليه الناس. كان أوسع من الضيق، حلق وما زال يحلق فوق سقفهم.
هبط من بيته في كوبر ليحلق في سمائه هو، وتحت سقفه هو. لم يحلق تحت سقف أحد.
أخذه قلبه الشغوف إلى كل أماكنهم.
يصرَ أهل كوبر على القول: حسين جميل وليس حسين البرغوثي كما يناديه من لا يقطن كوبر. من هناك هبط حسين إلى التجربة. حاملاً معه لوزه إلى حدائق وعي اللاوعي.
أول لقائنا في العام 1994 كان يحلو لحسين جميل أن يغوص في متاهات اللاوعي، وسراديب العقل المعتمة، وخبايا العلاقات المعقدة، والصور الهاربة للعقل المشدودة بحبال الحياة إلى طبيعتها.
كان متفرداً في حضوره. قلقاً في وجوده على وجوده، وعلى صوره المتخيلة، التي كان يحلو أن ينثرها

دائماً على طاولة وجوده ووجودنا القلق.
حسين جميل، خارطة واسعة للانتماء. لم يكن ضيقاً، ثوبه أوسع من حزب.
هبط من هناك، من بلدة كوبر، قلقاً، وبرياً، لتأكله المدن القريبة والبعيدة.
من كل المدن التي أكلت من روحه قليلاً، لم يعشق مدينة أكثر من (سياتل). أكلت ما أعطته إياه كوبر التي عاد إليها مثخناً، متعباً، ولكنه عاد إليها بآثر، بقلب غض، وروح شفافة، ورئتين واسعتين وشيطنة مبكرة.

أخاف من قراءته. إنه كاتب مرعب
محمد روحي

اعتصرت مخيلتي لأتذكّر أوّل مرّة التقيته فيها، وفعلاً تذكرت: كانت عرضاً في شارع «ركب» بمدينة رام الله، عرفني به صديقي القاص (زياد خداش) ببرود ودون اهتمام، ولما افترقنا سألت خداش: من هذا المتشرد؟ قهقه وقال: هذا حسين البرغوثي، يا رجل، ألم تقرأ له؟ وقال عنه كلاماً جميلاً، وكنت فيما مضى قد قرأته متناثراً هنا وهناك، ولم أفهم طلاسمه الجميلة.
أود أن أقفز قليلاً لأقول: ببساطة – ومن حيث لا أدري – وقعت فيما بعد في حبائله أما قال يوماً: «بالنسبة إلي ككاتب فإن أجمل خلق هو فك الطلاسم» أو ليس هو القائل، أيضاً، «ما لم تستوطن القلق والمجهول، ستبقى باحثا ساذجا عن الأمان».
لأعد لحكايتي مع هذا الشاعر: الممسوس، الممغنط، الذي إن احتككت له ولو قليلاً – شئت أم أبيت – سيترك على فكرك بصمة ما، وسيحفر في حواسك عميقاً.
في مهرجان المربد الشعري السادس عشر العام 2000 ببغداد، تعرفت إلى العراقي (خضير ميري) الموسوم (بالمفكر الشاب)، فكان يأتي لفندق المنصور كل ليلة ونظل نتحاور ونتمازح معه حتى الصباح، وذات ليلة قال لنا بالحرف الواحد: «ستفهمون حسين البرغوثي بعد عشر سنين، وربما بعد ربع قرن»، «ما قاله خضير» أربكني وأخجلني، ياه، ذاك المتشرد والذي هو على مرمى بضع خطوات مني، يساوي كل هذا؟ قلت في نفسي.
كان همي أن أعود من بغداد لرام الله، لأقرأ حسين البرغوثي، وفعلاً بدأت. يقول حسين البرغوثي:

«الشعرسحر
يفقر العمر لكي يغني الكلام
أدخل الشعر في ضده، نثره، الشكل في اللاشكل،
أي
مهنتي الفوضى، ليرتبك النظام...».

إذا كان (ديفيد كوهين) قد قال يوماً: «من المرعب أن يتشابه الجميع» فإن البرغوثي قال ما هو أهم وأخطر من ذلك: «أن تتشابه مع نفسك مرعب أكثر» وقال: «الفن يخلق عبر الشك» وقال: «ما يندثر هو الذي نستطيع أن نعيش بدونه تماما» وقال: «الكلمات مثل العملة تهترئ بالاستخدام» وقال «الأدب هو سك عملة جديدة، وطبعا قد تكون من ذهب» وقال: «كل نص يفتقر للمعرفة تافه» وقال: «أنا أمل من أي فعل لا يحوّلني، حتى لو كان الكتابة..».

فماذا أقول أنا بعد؟

صرت ألتقيه مصادفة في (بيت الشعر الفلسطيني) أو يسلمه لي (زياد خداش) بعدما يهاتفني «تعال بسرعة، ها نحن في مسرح القصبة، أنا وحسين البرغوثي) وأنا مدين للأخ زياد بذلك. لا أبالغ ولا أجامل إن قلت: إن الشاعر حسين البرغوثي مؤهل فنيا للتهكم من كهنة وأغربة السائد، أولئك الذين «يحرسون الكلام من الخلخة) وحينئذ (والذي يغضب يرضى، حين ينهار الكلام». حسين البرغوثي شاعر إنسان، يصطادك بلا رحمة: بتواضعه، بثقافته المركبة المدهشة، حسين البرغوثي شاعر يعدي، وباء ثقافي لا بد من شربه لتتعافى.

أقول بصراحة: ما زلت أحاول فهم هذا الشاعر الرجيم، ربما فيه شيء ينتمي لسلالة الكهرباء، كتابة: تخض، تحرج، تزلزل، تكهرب الروح.

وأعترف لأول مرة:

إني أخاف من قراءته، إنه كاتب مرعب.

كان شعرك أطول من ذوقنا
محمود أبو هشهش

أقضيت كل هذا الوقت في الصحراء وحدك، ونحن نضحك حول نبع الماء من ماء السراب على عيونك أو فمك، ونعب من آبار عتمتنا، وأنت تشرب من سماء لا تطيع سوى تصحّن راحتيك؟ أمشيت كل تلك الدرب وحدك، ونحن نهرب من شياطين تسلطها على استكانتنا؟

نخاف من الضفاف ومن ماء لا يسير لمنتهاه...

أنيابة عمن قطعت العمر وحدك كي تهتدي لمن اهتديت، نيابة عمن؟

كيف التحول كان؟ في الصحراء أم بين اللوز، أم فوق التلال؟ في الغابة السردية أم البحر الذي اهتدى إلى شطوطه؟ وكيف كنت وأنت تعب من عطش فترتوي لتزيد خفتك التي بها ستميد هذي الأرض، ونحن نخشى الطير الذي يحلق فيك نسراً، ونخاف ممن يسبر الأغوار، ويهدم الأسوار، وكنت تكسر ما سيكسرنا وتضحك.

ونحن نضحك من شعرك المجدول كنا، أو نقول لعله مشكلة، لكن صمتك لم يكن لغزاً!

ولم تكن لتقول أنك حامل عبئاً لأجل الغير، كنت تركت جمال الأنبياء وراء رأسك المختال ثم حملت تاجك ورداً أو أسداً.
وأنت ترقص على تراويد كورسنا، في خفة العاري، وكل شيء منك يرقص فيك ويرقص خارجك، وأنت ابن أبيك تقتله وتذهب عارياً نحو جسمك الموعود بجوقات الغناء والنبيذ.
وتكشف في البراري كيف صار الظل غولاً، وكيف ينبت مثل الزعتر البلدي أولياء الله، وكيف يضل من مسّه قمر، وتروض الصحراء بالزخارف والخطوط.
ولم يقف أحد ليسمع، كان شعرك أطول من ذوقنا، ونعلك مشكلة!
ولم ينتبه أحد لروحك تنمو فينا، رويداً رويداً، وتغمرنا، لم ينتبه أحد لاهتداء طاقتنا إليك، وارتفاع القلب في الإيقاع!، لم ننتبه أبداً لـِ كم نحبك منتشياً بكل الكون، ومنتشين بك!
ها أنت تحمل ما جمعت من الشموع لتثقب روح الموت في صلواتنا، ونحن الآن فيك وأنت ترقص الشمعات في كلتا يديك، وتضيء عتمتنا، وترقص...

فارس ترجّل
مروان برزق

توارت بجوار كرم اللوز في «كوبر» سنديانة شامخة تحمل اسم ومناقب حسين البرغوثي. الشاعر الملهم والمبدع «أبو آثر» بصمة على سطح الشعر العربي المعاصر، لم يستسلم لمخالب المرض العضال الذي ألمّ به، وكان يحمل الوطن ابتداءً من رمال النقب حتى مشارف الجليل المحتل. وكان وطيداً وثيقاً مع كلّ موكب الشعراء وهو منقض عليه أخطبوط المرض الطاعن.
التقيته أكثر من مرة، وكان حين يطأ غزة هاشم ويحل ضيفاً عزيزاً على صديقه الفنان التشكيلي إبراهيم المزين، أراه باحثاً عني بأصالة الفارس الذي لا يجهل ولا يتجاهل أصدقاؤه في الساحة، وكانت عزائي سماعة الهاتف للاتصال بعنوانه في رام الله ومسقط رأسه «كوبر»، ليسرع الردى بمهاجمته والإسراع بمنية حسين البرغوثي وقد كانت فجيعة وكارثة ساحقة.
من ملف الذكرى أنني التقيته مرة وهو يرافق الدكتور الراحل إبراهيم أبو لغد ويجلسا على أحد مقاهي المدينة، وأطلق دعابته اللاذعة يافا وغزة على شاطئ البحر و«كوبر» على سفح الجبل، فرددت على مداعبته بأن «كوبر» هي قمة الجبل ولوزها اليانع يتاخم بيتك يا أبا آثر لتكبر الصدمة وتتسع بأن يفترس الموت واحداً من كبار شعراء الوطن، وليلحق بركب شهداء انتفاضة الأقصى، لتبقى لنا قصائده وتراثه وأحاديثه الشيقة وجيله الواعد بين مدارج جامعة بيرزيت، وحينما يأتي ربيع اللوز نمر لنرى وريقات سنديان «كوبر» الشجرة الشامخة اليانعة.

حسين البرغوثي ترك أتباعاً .. ولم يتبع أحداً
مريد البرغوثي

كان على الموت أن لا يعم ويشيع فينا إلى هذا الحد حتى يكون موتك واضحاً أيها الشاعر وحتى يسقط على غيابك ما يليق به من ضوء.

كان على الموت أن يخلي الساحات من الشهداء لساعة واحدة، ويباعد بين غصونهم بيديه حتى نتمكن من رؤية القادم الجديد الآتي من جبال كوبر وتقديم التحية لنعشه الخفيف، نعشه الحساس، نعشه الموهوب، نعشه الشفاف، حيث جبين الشاعر محاط بخصلات الموسيقى التي تستدير إكليلاً لا يغلبه العلاج الكيماوي ولا تغبره النهاية.

الموت الشره الذي مرّ بجنين ونابلس وطولكرم وبيت لحم والخليل ورام الله والبيرة، وجد وقتاً إضافياً ليمر بقريتك الصغيرة ويصحبك في طريق عودته إلى بيته، يغسل وجهه ويديه، يبدل ملابسه ويرتاح قليلاً قبل أن يخرج إلى أشغاله المعتادة من جديد ويمارس تخصصه الأخير وهو المتخصص في شؤوننا نحن بالتحديد منذ شبه قرن من الوقت.

كان يطمئن أصدقاءه، فيرتعشون لأجلهم ولأجله، زرته مع محمد بكري وخالد الحوراني، وقد حملا له قبعات ليرتديها بعد أن يأخذ شعره في التساقط ارتدى بعضها حيناً ثم رماها وقال سيعود شعري ولن أموت، وظلَّ يجلس مع تلامذته وأصدقائه وضيوفه ويطمئنهم، فيرتعشون لأجلهم ويرتعشون لأجله.

*

إنني لا أريد لكتاباته الجميلة وأشعاره وأغانيه أن تظلَّ سراً من أسراره، اقرأوا دواوين حسين جميل البرغوثي وكتبه، وتوقفوا كثيراً عند آخرها «سأكون بين اللوز» الذي مات دون أن يكمله، اجمعوا ذكرياتكم معه، استعيدوا حضوره الجذاب في كل جلسة، واختلافه عن صورة الشاعر «القديم» والشاعر «الحديث» فقد صنع لنفسه صورته هو، المحاور، المشاغب، الهادئ، الصاخب، الناقد، القوي، الهش، الأستاذ، التلميذ الذي صنع أتباعاً ولم يتبع أحداً.

وصلت إلى بودابست أواخر 1978 فقيل لي «نعرف شاعراً آخر من دار البرغوثي اسمه حسين جميل، كان يدرس هنا وهو إنسان رائع، كنت أسمع به للمرة الأولى ثم قرأته بعد سنوات وتعرفت عليه في لقاء لي مع أساتذة بير زيت في «بيت الشعر» ثم في بيته في كوبر وفي شوارع رام الله وفي مقهى زرياب عند صديقنا تيسير بركات، حيث تفوح شجرة تايلاندية مورقة كنت قدمتها هدية للمقهى وكانت الشجرة الوحيدة في بيتي في رام الله آنذاك، ولا أدري إن كان جنود إسرائيل قد هشموها بحثاً عن روح الفلسطينيين وأسلحتهم المدفونة في نواياهم التي لم تورق بما يكفي بعد.

كان على الموت أن يفسح المجال لعودة الحياة الفلسطينية لأيام أو أسابيع أخرى قبل أن يهجم على كوبر ويخطف الشاعر الذي يعد مع مروان البرغوثي أجمل أبنائها.
كان على الموت أن يجعل موت الشاعر مدوياً كجبل ينفلق فلقتين، وراعداً كفراق عاشقين كرهاً وإرغاماً وصخباً في ليل ذابل على نعاسه، فالشاعر يستحق أن يفسح الطريق لموته بحيث تقف النجوم القرى وقفة الحرس وضوء القمر يجرح كحد البطة على قالب الرخام، معلناً هبوط موسيقاك وألوانك ولوحاتك من سفوح اللوز إلى هدأة الحصى في الوادي الأخير.
حسين جميل البرغوثي، أنت لا تحتاج كلماتنا الآن، نحن نحتاج كلماتك.
إذهب يا رجل
إذهب عن هذه القارة الخمس التي يحكمها جميعاً رجل في واشنطن لم يقرأ في حياته بيتاً واحداً من الشعر.
«إذهب بلا تردد
وانتظرنا
ربما نحمل لك أخباراً جيدة؟».

يا رجل.. توقف قليلاً
معن سمارة

مراد السوداني في كل لقاء لي معه يذكر المحاضرات العشر التي علمها حسين البرغوثي له ولزملائه الذين كتبوا الشعر في جامعة بيرزيت حين كانوا طلاباً آنذاك. إصرار مراد، على ذلك، وحديث الآخرين، زملاء مراد، على هذه المحاضرات، وكيف أنها خلقت منهم شعراء حقيقيين، وهذا ما لم تفعله سنوات دراستهم في دوائرهم المختلفة جعلني أشعر بالغيرة منهم.. وأحسدهم على ذلك المعلم.
كان لقائي الأخير مع الرجل في مسرح القصبة صيف العام الماضي حين كنت مع صديقتي (*GESA*) نشاهد عرضاً مسرحياً راقصاً بعنوان (أذكر)، وجاء مقعدنا جانبه.. حينها كنت قد انتهيت من قراءة كتاب (الضوء الأزرق) للمرة الثانية وعقلي ما زال مشتتاً منه وفيه، وخصوصاً نهايته. تلك التي جعلتني أشعر أنها تمثل هروباً لشخصية لا أريد لها الهروب.. الرجل يحب الحياة، ويحاول دائماً أن يحلل، يفسر، ويعلل الأمور، ويعشق الذوبان في تفاصيلها. فجأة تحوله النهاية إلى آخر يريد الهروب، والعيش مع ذاته مصرحاً: (سأتحول، كما تعلمت من طريق محارب مسالم، من شخص استثنائي، في عالم عادي إلى شخص عادي في عالم استثنائي، سأتجنب، كشبح لا يخرج من بيته إلا بعد منتصف الليل ماشياً في الأزقة الخلفية محاطاً بفيلا كلها أضواء وحفلات كوكتيل وموسيقى مبتذلة وجنس وسياسة وصراع على

المناصب، وعواء، وكل ما أرجوه أن لا ينتبه أحد لمروري .. سأراكم على وجهي أكبر قدر ممكن من الأقنعة..)

جعلتني هذه النهاية أرفض الرجل، وأصرخ على الصفحة الأخيرة من الكتاب: (يا رجل توقف قليلا، هل تكفي كل أقنعتك كي تلوك الضوء الأزرق.. هل يكفي ضوءا أزرق واحداً؟؟)

حين رأيته بالقصبة أطلعته على ما كتبت في نهاية الكتاب، فنظر إلى وجهي قليلاً، ثم أجاب: (أتمنى أن يكون لي ألف قناع كي أخفي ضوئي الأزرق). كانت كلماته جافة، ومختصرة لدرجة إنهاء الحديث معه، وانتظار العرض الغنائي.

حين كنت أراه في الشارع، قبل معرفته، أضحك كثيراً. أشعث الشعر، ملابسه غير مرتبة، ونظراته للشوارع والناس غريبة جداً. أقسم أني فكرت ذات يوم، وكنت حينها في أول عهدي في يراعات، أن أكتب قصة عن شخص تائه في شوارع رام الله، يدور هنا وهناك كأنه يفتقد نفسه، وأردت أن أسميها (المجنون) ولكني عرفت بعدها بأن هذا الشخص هو حسين البرغوثي.

أكتب عن الرجل، وما زلت أشعر بنوع من الغيرة والحسد من تلاميذ المحاضرات العشرة.. حين قرأ قصيدة لي من خلال محمود أبو هشهش في مركز خليل السكاكيني، نظرت إليه وهو يعيد قصيدة لمحمود، وينظر إلي بغضب مختبئ خلف نظاراته. أدركت حينها أنه يريد تمزيق القصيدة، والصراخ في وجهي: حاول مرة أخرى. تمنيت في نفسي: (لو أني من تلاميذ المحاضرات العشرة)

يا رجل، ماذا تريد لآثر حين تخبره بأن القلم الأزرق يكتب شعرا أزرق، والقلم الأحمر يكتب شعراً أحمر، والقلم الأصفر يكتب شعراً أصفراً؟؟

هكذا أنت!
مهيب البرغوثي

هكذا أنت بعكس كل الأشياء، تأتي شفافاً بغتة مثل الضوء... ترى هل سنستمع يوماً للعمق... أم سنبقى على السطح نثرثر؟

وهل العصافير تملك حريتها في الطيران... هل هناك في الطيران متسع للحرية كالرقص؟...

عندما تسقط النار رمادها... نكون قد أنهينا الدرس الأول ونبحث عن سر الأزرق فيك ومدينة بقيت هاجساً، كانت الشبابيك فيها تفرغك من الحنين؟ فهل ثمة علاقة بين الضوء والمكان؟ ولماذا الألوان تملك كل هذه القسوة؟ حين نحاول أن نتعلم الدرس الثاني تطير النوارس ويضج القلب محاصراً بالماء...

فيأتي الأزرق باحثاً عن زهرة ماتت وفراشة مطلقة السراح، لماذا الأسماك لا تحب أوراق الشجر؟ هل كان أراغون على حق: (فليسقط العالم سأبني عالماً أجمل منه)؟.

هل يطوي الليل طفولة المدينة حين نجلس حول النار ونداعب (آثر) باحثين عن سر الخلود؟
في شعر هوميروس واللغة الآفلة.. وما زالت هناك الرؤيا....
هل نملك تأنيث اللحظة في لحظة عابرة؟
هكذا كان (آثر) يحاول أن يطير بين الألوان، فيضج القرنفل بالانتباه، حين يرى أمه تحيك الوقت في ساعة الحائط.
قلت: فرصة للحظة قاتلة حين يحاصرها البحر، عبرملذاته، تكون الرؤيا تسبح بدلال في مخيلة الوقت: (إن أهديتها ذهباً لن تجد روحاً، وإن أيقظتها شهوة لم تعد جسداً).
ترى ما الذي يغري النوارس لتقف على شرفات مدننا؟ لعله الحنين إلى الماضي؟ هل للنورس ماض كمدننا؟
تتناسخ أساطيرك من كائنات ذاكرة المتوسط والتي تعج بالسحر والنار...
(إنه الفراغ الذي رأى التفاصيل) ليرسم السنونو مباشرة فيغذي التذكر، ويستفز الحلم كتعويض نفسي أم أخذت بيقين واثق(أن تؤمن، يعني أن تثق، أن تثق يعني أن لا تسأل ، أن لا تسأل يعني انطباق المكان عليك) ليأتي الفراغ كتراكم من الماضي، أي بمعنى أن التفاصيل تعمق حضورها بقوة في الذاكرة وفي نفسك أساساً. عندما تكشف الأقنعة يكون الفراغ قد رسم التفاصيل فتعود للرقص كتعبير عن القوة على ذمة الغزالي... فتملك اللحظة لترى الحلم واقعاً.
هل للحقيقة بابان والشمس بين الخرائب تنوح قاتليها؟ أكنت أنت أم يجب أن تكون هم ليكون رأسك أنت (يعني أن ينطبق المكان عليك).
هل سنحمل (العقرب) لنكون في خدمة (السيدة)...أم (نستحم وننجو).
أأمكن أن نرى الممكن، حين تكون الضفادع أزرار مرمر تغسلنا بالضوء.
أم سننتظر(سنة جاءت من النيل. أو بردى) لنفهمك.
(ما كنت أدرك ما معنى الأبوة حتى جاءني ولد عمره سنة.... جاء من سنة الله كنهر النيل. أو بردى)
ترى
هل الأصفر من سيعيد ترتيب
تفاصيل المعرفة
حين يكون الذهن عقرباً
فتأتي سمكة .. شلالا.

وداعاً يا حسين!

نجيب غلال

مات صديقي الشاعر الفلسطيني حسين البرغوثي يوم الأربعاء فاتح ماي برام الله، حيث تدهورت صحته، ربما بسبب الحصار الذي منَع عنه التوصُّل بالأدوية التي كانت تساعده في مكافحة المرض الخبيث منذ عرفتُ حسين شاعراً مبدعاً رقيقاً وشفّافاً، وكان باحثاً وجامعياً من خيرة الأدباء الذين أنجبتهم أرض فلسطين، وربما أكثر مبدعيها الشباب عمقاً وموهبة.

مات حسين وهو في عزّ شبابه تاركاً خلفه إرثاً أدبياً سيشهد على عبقريته وولداً صغيراً أبدع له اسم «آثر» وزوجة سمّاها بنفسه «بترا» تيّمناً بمدينة «البتراء» الأثرية التي ما تزال معالمها شامخة في صحراء الأردن تشهد على عمق حضارة أبناء هذا الشعب الضاربة في التاريخ.

كان حسين عبقرية استثنائية بحسب شهادة كلّ من قاربوه .. كان حسين في شهوره الأخيرة يقاوم داء السرطان الخبيث بكلّ ما يملك من قوّة. كان يكتب دون تمهّل رغم الإنهاك والألم، وكأنّه يسابق الزمن، إذ كان يعرف أنّ أيّامه أصبحت معدودة..

عرفتُ حسين عن قُرب رغم أن لِقاءاتي معه كانت محدودة .. لكن كلّ لقاء معه، كلّ جلسة، كلّ حوار، كان بمثابة لحظة تاريخية تركت أثرها العميق في نفسي .. وكنت أكنّ له احتراماً خاصاً.

قرأتهُ شاعراً عظيماً، وعرفتهُ باحثاً مُنظّراً وصاحب منهج ورسالة .. تواضعه اللامحدود وإنسانيته الصادقة كأنها تجعلك تخجل من نفسك ..

كان حسين يحتفي بأصدقائه، يستمع إليهم ويبادلهم الأفكار ولا يتوانى بالإدلاء برأيه والتعبير عن وجهة نظره .. ودائماً في حدود الأدب .. لم يكن أبداً سليطاً، ولم يكن يجرح إنساناً على الإطلاق .. كان رجلاً حُرّاً بكلّ معنى الكلمة، حُرّ الكلمة، حرّ المبدأ، حُرّ التصرف.

كان حسين يطرّب للكلمات، كان يحُبّها حيّة راقصة لا خطابية جافّة. وأنت تُنصِت إليه كأنك تُحسّ أنه يعيش في حالة تجلٍّ مُستمر ..

كان حسين عربياً فلسطينياً حتى النخاع، وفي ذات الوقت، كان مُنفتحاً عاشِقاً لِكُلّ الثقافات، يعشق المتنبي ويسردُ أشعار رامبو وبودلير .. وكان فلاّحاً يهيم في حبّ الطبيعة، يُحاورها ويحتفي بأرضه، خاصّة أرض قريته «كوبر» التي كان يُكنّ لها عشقاً خاصاً.

آخر مرّة رأيتُ فيها حسين البرغوثي كان ذلك في شهر ديسمبر من سنة 2001 بمسرح القصبة برام الله .. ودّعته لأنني كنتُ على أُهبة السفر إلى فرنسا. تعانقنا بحرارة – وكنتُ أحسّ أنّ حسين كان يثمر بخَجَلي فأنا أكرهُ لَحَظات الوداع – فكان يطلق نكتة أو كلمة خفيفة لِيُبدّد عنّي هذا الإحساس الذي كان يُحرِجُني .. تعانقنا على أمل أن نلتقي بعد عودتي القريبة إلى رام الله، إذ كان لا بُدّ لي أن أعود إلى فلسطين لمتابعة العمل الذي كنت ابتدأتهُ بصحبة أصدقائي بمسرح القصبة ولم أكُن أعرف وقتها أن سُلُطات الاحتلال ستَمنعُني من العَودة .. في تلك الليلة كان حسين قد جاء ليشاهد مسرحية كنتُ أنجزتها

مع فرقة مسرح القصبة، وكنتُ جدّ مُحرج لأنني كنتُ أعرف أن حسين كان قد غادَر المستشفى منذ أيّام قليلة فقط، وأن صحّتهُ مُتدهورة، ومع ذلك تحمّل مشاق التنقّل والسهر وجاء ليحضر المسرحية .. لم أكن وقتها راضياً عن نفسي لأنني كنتُ على وَعْي تام بأنَ ظُروف العمل والحِصار لم تساعدنا البتّة في إنجاز العمل بالشكل الذي كُنّا نطمح إليه، لكن حسين كان متفهماً، بل جاءت كلماته إليّ بعد العرض صادقة أخوية ومشجّعة رَفَعت من معنوياتي .. فقد كان حسين يرى بِحدسه وعقله ما لا يراهُ المتفرّج العادي.

قبل بضعة أشهر، وبدافع من الحبّ الخاصّ الذي يربطني بإبداع حسين البرغوثي، فكّرت مع بعض الأصدقاء – من بينهم صديقي أمين عنابي وصديقي المغنّي جميل السايح – أن نطرح على صديقنا جورج إبراهيم بصفته مديراً لمسرح القصبة فكرة تنظيم ندوات أدبية مصحوبة بفواصل فنية وقراءات وشهادات حول بعض المبدعين الفلسطينيين الذي لهم تأثير على تطوّر الحركة الأدبية بفلسطين وقد اقترحنا أن نفتتح سلسلة الندوات هذه بتظاهرة ثقافية كبيرة تتمحور كلّ فعالياتها حول إبداع حسين البرغوثي .. لكن عدم إمكانية عودتي إلى رام الله في الوقت المناسب حال دون ذلك وفي اتصال لي قبل أسابيع قليلة مع أمين عنابي أثرنا الموضوع من جديد.

في إحدى المرّات الأخيرة التي أُتيح لي فيها أن ألتقي بحسين البرغوثي بشكل مُطوّل – كان ذلك في شهر أكتوبر 2001 – حيث أمضيت معه سهرة في بيته بقرية كوبر بصحبة الممثل خليفة ناطور .. وكوبر هي قريته التي نشأ وترعرع فيها، وقد عاد ليسكن فيها من جديد غير بعيد عن بيت والدته وعائلته بجوار بيت والدة ابن عمّه مروان البرغوثي ...

وكان الهدف من الزيارة التحدث مع حسين حول مشروع العمل على مسرحية «هملت» لشكسبير (وهو عمل ما زلت أُصرّ على إنجازه بفلسطين بالتّعاون مع خليفة ناطور)... وقد كان حسين عندما التقيته في القدس في صيف 1997 أخبرني أنّه كان بصدد ترجمتها. وقد كانت هذه الترجمة تعتبر بالنسبة إليه مشروعاً أدبياً في غاية الأهمية.. سمعت منه بعض المقاطع التي كان يتجلّى لترديدها، وأشهد أنها كانت ستكون رائعة أدبية تتجاوز بقيمتها الفنية كل الترجمات العربية التي سبقتها مع احترامي لأصحابها...

في تلك الليلة كان حسين رغم الإنهاك يبدو سعيداً، كان يبدو في انسجام مثير مع عناصر الطبيعة التي كانت تحيط به في بيته الرّيفي. حكى عن علاقته بالحيوانات التي تتواجد غير بعيدة عن مسكنه – ثعالب وغيرها – وأَضحكنا حين روى لنا كيف أنّه مرّة وجد نفسه وجهاً لوجه مع ضبع متوحّش ولم يتجرّأ هذا الأخير بمهاجمته، بل ولّى ظهره وغاب. كان حسين في تلك الليلة ينتشي وهو يستذكر المتنبي وامرئ القيس ويسافر بخياله ويفكّر بصوت عالٍ ويروي لنا عن ذكرياته حين كان طالباً في هنغاريا ثم باحثاً جامعياً في أميركا وإنجلترا وعن حياته البوهيمية في القدس.

كان مولَعاً بالشعر العربي القديم وكان يحب أن يرحل بالشعر الحديث إلى أصوله العربية ثم يعود به وقد زاده غنى.

كان غيوراً على الشعر العربي وقواعده ويحب الاستدلال على عظمته بأن يبيّن – وهو يستعرض قصائده

عن ظهر قلب – كيف نَهلَ من الأدب العربي منذ عصر شكسبير، لكنه لم يكن أبداً شوفينياً.
كان يحّب أن يحلّل ويفكّك ثم يعيد التركيب ويرحل بين اللغات ببلاغة قلّ نظيرها إذ كان يتقن اللغات الهنغارية والإنجليزية.
وداعاً يا حسين.
وأعدك أننا – وفاءً منّا لذكراك – سننشد جلجامش بلغة هذا الشعب على نغمات اليرغول والرّبابة... وسنُحيي (هملت) على خشبة المسرح العربي باللغة التي ترجمتها أنت.

الرحيل إلى بساتين اللوز
يحيى يخلف

فجر أمس، ودّع ربيع فلسطين الحزين، الكاتب والشاعر الفلسطيني الكبير حسين البرغوثي، بعد صراع طويل كابد خلاله آلام المرض، وآلام الاحتلال، تاركاً لنا إرثاً غنياً من الإبداع، وتاريخاً شامخاً لسيرة ذاتية ناصعة، ووصية عنفوان بأن نواصل الصعود في مسيرة صراع البقاء.
رحل قبل أن يرحل الاحتلال، رحل مثقلاً بالألم، ومفعماً بالأمل، فالوطن جريح، ولكن أغصان اللوز في كوبر أزهرت وبرعمت على الرغم من أنف الاحتلال.
رحل باكراً مثلما رحل إبراهيم طوقان، ومطلق عبد الخالق، وعبد الرحيم محمود، ومعين بسيسو، ومثلما رحل لوركا وبابلو نيرودا، وهو على يقينٍ من أن الوطن باق والاحتلال والفاشية والعنصرية إلى زوال.
لم ينته العدوان الإسرائيلي بعد، ولم يبدأ بيننا الجدل، ومع ذلك سيشارك حسين معنا في طرح أسئلة المصير، وفي المطالبة بإجراء مراجعة نقدية للمرحلة الماضية بعد هذا المنعطف الخطير، من أجل تحرير المستقبل من كوارث الماضي، ومن أجل ألاّ تتحوّل الضربة العسكرية الإسرائيلية إلى هزيمة سياسية لنا.
ماذا يريد المثقف الفلسطيني؟
يريد وطناً حرّاً وديمقراطياً، ويريد تجديداً دائماً، وتغييراً مستمراً، ويريد أن يكون للثقافة والفكر مكان وسط هذا الزحام الذي تتصارع فيه الخيول للوصول إلى حوض ليس به ماء.
لم يكن حسين البرغوثي ظاهرة تلفزيونية مثل تلك الظواهر التي تطلّ علينا عبر الفضائيات، وتملأ حياتنا بالسأم، ولكنّه كان بالتأكيد أحد الناطقين باسم جراح الشعب الفلسطيني، وباسم أحلامه ووجدانه وتراثه وشخصيته الحضارية.
حسين البرغوثي قدّم أوراق اعتماده إلى الشعب الفلسطيني من خلال نصوصه الشعرية، الفكرية، التأملية مثل «مرايا سائلة» و «حجر الورد» و «الضوء الأزرق» و «سأكون بين اللوز».
ودخل بالمرض على عمق قلوب أبناء شعبه ومحبيه وأصدقائه، فهو البلبل الذي منح كلّ الوفاء للوردة الحمراء، وهو نورس الألق الإنساني الذي يحمل بشرى الوصول عندما تحتدم سطوة اليأس، وهو سرّ

الليل المتفق عليه بين الشعلة وروح المقاومة والأمل، وهو سرّ القوّة التي تسكن جمرة النصّ، كما تسكن النار قلب حجارة الصوان، وهو فسحة التفاؤل في كتاب الانتفاضة الذي كتبه بالدم الشهداء والجرحى والأسرى، وهو العقد الفريد في مقتنيات بيت الشعر، وديوان الشعر، وسؤال الحداثة في تجربة الشعر الفلسطيني.

أحلام حسين البرغوثي هي أحلام أطفال الوطن، وأحلام البراءة والنقاء والصفاء، وأحلام المدافعين عن الحرية والتقدّم والديمقراطية. رحل حسين البرغوثي، لكن أحلامه تظلّ أحلام الطليعيين من المثقفين والكتّاب والشعراء والمفكرين والفنّانين، أحلام روّاد التحديث والتجديد والتنوير والنهضة. رحل حسين البرغوثي من هنا إلى هناك، من الوطن إلى الوطن، رحل إلى بساتين اللوز في كوبر، هناك في الأعالي، مثل طائر من الطيور التي لا تسكن إلاّ فوق الأغصان العالية.

إلى المجبول بثرى كوبر .. وزيت شجرها المقدّس
عبد الحكيم أبو جاموس

هو ليس شخصاً عادياً، بدءاً من الشاب حسين الثائر، ومروراً بالأستاذية، وانتهاء بالشاعر الناقد. هو نموذج فريد متميّز، له طابعه الخاص، وبصماته ذات الماركة المسجّلة، بسيط هو، أقصى درجات تصوّر العادية والبساطة، وفي الوقت ذاته، عبقري فذّ متمرّد لا يحفل بالتفاهات والمظاهر الزائفة ذات الصبغة البراقة.

انه حسين جميل البرغوثي، صاحب قصائد إلى ليلى الأخيلية و «سقوط الجدار السابع» و«الضوء الأزرق» و «الرؤيا » و «توجد ألفاظ أوحش من هذه» و «المرايا سائلة» و «حجر الورد»، الآخذ بيد الأدباء الشبان والمثقف لدرجة العبقرية والشيوعي بالممارسة وصاحب الشخصية التي تنطوي على كثير من الصعلكة، يتأبط الخير دائماً ويعرو أزرار قمصانه بالورد والرياحين.

تعرفت إليه عن قرب قبل أن ألتقيه، وصار في جعبتي عنه من التفاصيل الدقيقة الشيء الكثير، وذلك بفضل الصديق الصحافي أمجد عرار الذي كان يحبه أيّما حبّ وينظر له أيّما تنظير. التقيته أول مرة أوائل العام1997 في رام الله، وكان حينها مع صديقي القاصيين : زياد خداش وصالح مشارقة، زياد تولى التعريف بيننا، وقتها، شعرت أنني أعرفه من قبل، وشعرت، أيضاً، ببراءته الطفولية وبطيبته وببساطته الفلاحية وبتواضعه الجم، فأدركت أنني أمام حالة نادرة بارعة، لها مدرستها الخاصة، ولونها الذي يبز غيره من الألوان. ولا أدري لم احتل هو والراحل العبقري المرحوم الشاعر عبد اللطيف عقل مكانين متميزين في تفكيري ووجداني، وما زلت أحب أن أعلي رايتها بين الرايات.

التقيته مرّة في مقر «بيت الشعر» في الأشهر الأولى لتأسيسه كان هناك، المتوكل طه وأحمد رفيق عوض

ويوسف المحمود، أخذنا نتحدث عن القرى والعائلات، فروى لنا أنه لما كان في بيروت أوائل الثمانينيات، مرّ على حاجز لقوات الكتائب، فاستوقفهم، كانوا خليطاً من الجنسيات أو حملة جوازات سفر عربية متعددة، قال: أيقنت عندها أنني هالك لا محالة .. أبرزت جواز سفري الأردني .. سألوني: من أين، من الأردن؟ قلت: من قرية اسمها كوبر هي بين قرى إربد وكذا .. فقال أحدهم: وقد خدع نفسه آه، أعتقد أنني أعرفها .. وسمح لنا بالمرور. وكان الفلسطينيون في ذلك الوقت عرضة للذبح والسجن والمساءلة، أكثر من أي وقت.
كان أمجد مفرط الحديث عن الرجل، وكنت أستمع إليه بنهم، عليّ أسبر غور شاعر ينتمي إلى مدرسة متطرفة في الحداثة والتمرد، قال لي: أرأيت كم هو معجب بمحمود درويش ومفتون بمظهر النواب لدرجة أنه أفرد له جزءاً كبيراً من كتابه النقدي (سقوط الجدار السابع).
حسين البرغوثي، قد نحتاج إلى شجاعة منقطعة النظير لخوض غمار تجربتك حين اعتكفت في أحد الأدغال لعدة أشهر للتأمل وتكوين موقف فلسفي من الحياة والطبيعة، وقد نحتاج لمجهود كبير كي نفعل ما كنت تفعل من انحياز للعمل والشغيلة البسطاء والطلبة حين كنت في جامعة بير زيت مبتعداً عن فئتك، وحين كان عدد كبير من الطلبة يتحلّقون حولك لسماع وجهات نظرك في العديد من القضايا الفلسفية وقضايا الشعر والأدب.
لعلنا نضعك في مكانك اللائق، ونعطيك حقك وقدرك، رغم أننا نعرف أن آخر شيء تفكر فيه هو المركز أو المظهر أو الشكل، لم تكن تلتفت إطلاقاً للباسك أو تصفيف شعرك (المنفوش) أصلاً والذي تركته على عواهنه، كان مكتبك في الجامعة مدار حديث الطلبة قاطبة فهو كما رووا لي أشبه بديوان استقبال، لم يحتج أي طالب إلى طقوس خاصة للدخول إليه كالحجز والتنسيق.
لك الشفاء يا حسين، أيها المجبول بثرى كوبر وزيت شجرها المقدس.

ك كبيرةٌ لكَ يا حُسين ..
تلتصقُ بنهايات أسماء أفعالكَ !
محمد حلمي الريشةَ

« في النهاية، مع أوّل طلوع النهار، سيغرق في النوم.
وقال لنفسه: لعلّ المسألة كلّها مسألة أرق، لا بدّ أن كثيرين يعانون منه».

(همنغواي)

مَاذا فَعلْتَ بَعدَ موتكَ، يَا صَديقي البَرغُوثي؛ حُسين جَميل ؟
حينَ رَحلْتَ، كُنتُ بَعيداً عَنكَ، كما أَرَادَتْني شَهوةِ التَّغييبِ المَريضَةِ لِلنَّقيضِ، في تِلكَ البُقعَةِ المُستَطيلَةِ بَينَ جَبلينِ (عيبَال وجَرزيم)، كأَنَّها القَبرُ الدُّنيَوِي !

كُنتُ أَتَشوَّى وغَيري دَاخِلَ حِصَارِنَا الَّذي عَرَفتَ جُزءاً منهُ وأنتَ في حِصَارٍ دَاخلَ حِصَارِ مَرَضكَ الآخَر اللَّئيم ! ولَم يَكُنِ المَوتُ لِيَشبَعَ مِن ضَحَاياهُ هُنا (فلسطين)، أَو يُشبِعَ نَفْسَهُ بِنَفسهِ بِطُرقٍ وكَائنات أُخرَى هيَ «أَحقُّ بِالمَوت» منَّا، فيَتشَاطَرُ عَلينا بِكُلِّ كُلِّهِ الأَسوَد [رُبَّما كُنَّا لَوَّنَا الكَفَنَ بِالأَبيضِ لِنَنتَصِرَ لأَنفُسنا من ضَعفنا التَّامِ أَمَامَه]، ولَم يَكُنْ لِيُوفِّرَكَ لَنا بَعدَ حُبُورِنا القَليل بِكَ؛ نَحنُ الَّذين لَم نَعُدْ نَقدرُ عَلى عَدِّ الحَياةِ، كَمَا نَعدُّ المَوت !

مَاذا فَعلْتَ بِنَا، بَعدَ مَوتكَ، يَا صَدِيقي (الكُوبَريّ) الكَبير؛ حُسين جَميل ؟
حينَ عُدتُ مِن حِصَارِي في (نابلس) إِلى حِصَارِي في (رام الله) الَّتي كُنتَ تُحبُّ، إِلى (بَيتي الشِّعريِّ)، كانَ أَصدِقَاؤكَ وزُملاؤكَ: المتوكّل، غسّان، مُراد، سيما، نَغم، رَشا، ريما، غَدير، سَامي، بشّار، ولا أَنسَاني مَعَهم، يَتَكاذَبُونَ مَوتكَ السَّريعِ، وحَيَاتكَ الأَسرَعَ مِن دقَّاتِ قَلبِكَ؛ فَاجَأْتَنا وفَجَعتَنا بِهذا الَّذي كانَ لَكَ، ثُمَّ أُفجرَ الأَربعاءُ الأَوَّلُ من أَيَّار بِكَ!
فَلِمَ هذَا، أَيُّها المُتَرَاحلُ أَوِ المُتَمَاوتُ، وأَنتَ لَم تُكملْ بَعدُ نَشيدَكَ الأَرضِيَّ ؟ ولِمَ لَم تَنْتظِرَنا ولا تَذهَبُ إِلى لُعبةِ المَوتِ، غَيرِ المُرغُوبَةِ، بَينَ أَشجَارِ اللَّوزِ، فَتكُونُ تَحتَها ؟

غُفرَانَكَ أَوّلاً يَا إِلهي الَّذي لا إِله سِوَاكَ:
– أَكانَ كَثيراً عَلَينَا ؟
– أَكانَ كَثيراً عَلَينا هذَا الإِشكَاليُّ الَّذي لَم يَكَدْ يَنفُشُ، بِصُعوبَةٍ، قُطنَ ثَقافَتِنا المُبتَلَّ / ـةَ بِالمَاءِ المُتكرِّرِ مِثلَ مَاءٍ وَاحدٍ ووَحيدٍ يَتَقلَّبُ في بِركَةٍ وضَيِّقَة ؟

– أكانَ كَثيراً عَلَينا هذَا الشّاعِرُ والنّاقِدُ والمَسرَحِيُّ والمُفَكِّرُ و...، فَلا نَرَى، بَعدُ، رُطوبَةَ حِبْرِ يَرَاعِهِ عَلى وَرَقِ حَيَاتنا الجَافِّ الَّتي قَضَيْتَ وقَدَّرْتَ ؟

– أكانَ كَثيراً عَلَينا هذَا البَرْقِيُّ البَرِيُّ المَسكُونُ بِنا الَّذي أَغادَرْتَهُ وَحِيداً، كَمَا كَان قَبلَ أَن نَعرِفَهُ، إِلى ضِفَّتِهِ الثَّالِثَةِ؟

يا إلهي الذي لا إله سواكَ، غُفرانكَ دائماً:

– أَكُنّا كَثيرِينَ عَلَيه فَلَم يَستَطِعْنَا ؟

هيَ الأَسئِلةُ الَّتي تَمُرُّ بِنَا قَسوَتُها كُلَّما ذَكَّرتَنا بِكَ، أَو تَذَكَّرنَاكَ، أَو ذَكَرنَاكَ، ونَذكُرُكَ، دَائماً، يا حُسين، ولْتَسمَحْ لِي أَن أَقُولَكَ وَاسْمَكَ حَافياً، هُنا، الآنَ، وفي أَمسٍ أَمَسٍّ سَيَأْتي غَداً !